

الجاحظ

الأديب الساخر

عبد الحليم محمد حسين

المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع

الجاحظ

الأديب الساخر

عبد الحليم محمد حسين

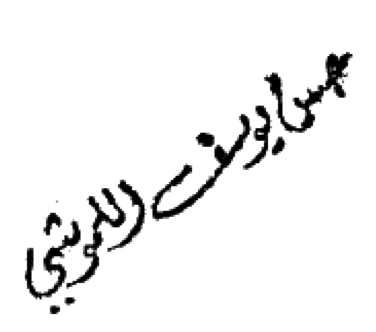
الجاحظ

الأديب الساخر

منشورات
المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع

الطبعة الأولى

1981 م







مقدمة

في العصر العباسي الثاني استبحر العمران ، وعم الرخاء ، ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوي اليسار ، فنعموا بنعيم الحياة ، وذاقوا حلاوة الوجود ، حتى تطلع كل انسان إلى الكثير ، وكان الكتاب الناشئون في نهاية العصر العباسي الأول قد نشأوا على الترسل والإيجاز ، ولكن الفارسية في العصر الثاني قد بسطت على العربية كل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب وأطنب الكتاب العرب حتى جعلوا أثواب المعاني فضفاضة ذات ذيول ، وأكثروا من المفردات والجمل على سبيل الترادف والازدواج ، وكان حامل لواء هذه الطريقة إمام الكتاب « أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكناني » .

وكان ذا ثقافة واسعة ، عالما ، فيلسوفا، أديبا ، كاتبا .

وزاول تدبيج الكتب والرسائل ، حتى صار أعجوبة الزمان ، لأنه واسع الاطلاع ، لطيف البحث ، طيب الفكاهة ، مخترعا لدقيق المعاني ، صواغا لبليغ العبارات ، فكان يؤلف بين الأشتات ، ويستنزل العصم من العبارات ، صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات ، فكان راوية متكلماً ، وفيلسوفاً مسامراً ، وأديباً مؤرخاً ، وشاعراً عالماً ، ثم واصفاً لأحوال الحيوان والنبات والجماد . ودراسة

أصول الناس والجماعات ، وهو في ذلك كله . الكاتب المكثار ، الذي لا يدرك له شأو ، ولا يشق له غبار ، لذلك عد أحد الأفذاذ ، وإحدى حجج اللسان ، قال ابن العميد يصف كتبه : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً » وقال المسعودي يصفها على تشيعه وعثمانية الجاحظ : « كتب الجاحظ مع انحرافه تجلو مبدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ »(1) .

وكان اذا تخوف ملل القارىء ، وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ، حتى شهر بالسخرية في عصره ، وبقيت سخرياته تبدد اليأس عن النفس ، وتجلب الفرح إلى القلب ، حتى اليوم وما بعده ، وزخرت كتبه ورسائله بالروح الفكهة ، حتى صار إماماً في هذا الفن ، بل وفي فنّ الكتابة ،

ولقد كانت لديه المقدرة على المزاوجة والترادف واتباع الشيء بمثله ، والقرين بقرينه، في فقرات يغلب أن تكون قصيرات ، حتى ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة ، في ابتداع مستحسن ، وابتكار ليس له فيما سبق مثيل .

فكان يكتب عن ذهن صفي ، وطبع رخي ، فيطنب ما شاء له الإطناب ، وكان له استعداد للقصص يسوقه حلوا ، عذباً ، مستملحاً ، شهياً ، كما يتضح ذلك في كثير من كتبه وأظهرها في هذا

---

(1) (الأدب ص336 ط نهضة مصر .

كتاب « البخلاء » .

ولقد كانت وسيلته التعبيرية تعتمد على ثلاث نواح رئيسية :

الأولى : وفرة المادة التي جمعها من مطالعاته ، ومن ثقافاته المتنوعة .

الثانية : دقة تحليله للظواهر وكشفه عن خفايا الأفكار حتى تبدو واضحة الأقسام ظاهرة الدلالات .

الثالثة : العناية باختيار القوالب اللغوية التي تناسب هذا التحليل ، وتترجم عنه ترجمة فنية جميلة .

فلقد جمع بين التحليل النفسي البارع ، وبين البحث الشامل القائم على القراءة الواسعة في كتب العرب واليونان وغيرهم كما يبدو في كتبه : البخلاء عند الحيوان ـ البيان والتبيين .

وهذا البحث خصص لدراسة لون من ألوان الأدب عند الجاحظ . وهو ابراز بعض جوانب السخرية عنده . على طريقة الأبحاث المتخصصة .

أقدمه وكلي أمل في أن ينتفع به أبناء الجيل الذين يربطون حاضرهم بماضيهم ليخطوا مستقبلهم الوضاء على أمجاد أعراقهم الأصيلة . وبالله توفيقي وهو حسبي وملاذي .

السيد عبد الحليم محمد حسين



الباب الأول

الجاحظ في أدبه وسخره



الفصل الأوّل

حياته وأدبه

اسمه : عمرو بن بحر ، بن محبوب الكناني ، ولقبه الجاحظ والحدقي[1] لبروز عينيه . وكنيته : أبو عثمان[2] . كان قصير القامة ، صغير الرأس ، دقيق العنق ، صغير الأذنين ، أسود اللون ، جاحظ العينين ، مشوه الخلقة ، مما جعل المتوكل يصرفه عن تأديب ولده حين رآه ، وأعطاه عشرة آلاف درهم[3] . .

ولد بالبصرة من أسرة متواضعة في منبتها ، وفي طبقتها الاجتماعية ، فلم يحفل أحد بمولده ، ولم تعرف سنة ميلاده ، وتضاربت فيها الآراء ، وإن كانت على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة .

أما أبوه : فلا يعرف عنه شيء إلا اسمه . وذلك يؤكد أنه لم يكن من علية القوم ، ولا من متوسطيهم ، ويرجح أنه مات قبل أن ينضج

(1) معجم الأدباء . ياقوت حـ16 ص75.

(2) تاريخ بغداد المجلد12 ص312 الخطيب البغدادي حـ 1 م السعادة سنة 1931.

(3) المستطرف في كل فن مستظرف الأبشهي حـ1 ص92 والقصة من الهامش وهو كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي .

ابنه الجاحظ ، ويذيع صيته ، وإلا للحقه شيء من شهرته .

وأما أمه : فلا يعرف عنها إلا أنها كانت فقيرة رقيقة الحال . وكانت تنفق عليه وهو صغير ، مما اضطره لكسب قوته ، ومواجهة أعباء الحياة مبكراً . فباع الخبز والسمك في صباه[4] . وكان يهتبل فراغه في التردد على الكتّاب . كما كان يتردد على حلقات المساجد ، التي يتغشاها أبناء الفقراء في مجتمعه إن أرادوا الحصول على قسط من التعليم . وكثيراً ما كان يذهب إلى المربد يتلقى اللغة والفصاحة مشافهة من الأعراب .

لقد تتلمذ الجاحظ على أساتذة كانوا زينة الدنيا وغرة في جبين الدولة العباسية . منهم الأصمعي الذي كان يحفظ ثلث اللغة . وأبو عبيدة الذي (لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه)[5] . وأبو زيد الأنصاري . وقد قيل عنه وعن سابقيه (إن هؤلاء الثلاثة كانوا في عصرهم - أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب) لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أخذ جُلّ ما في أيدي الناس من هذا العلم . بل كله)[6] . والأخفش وكان من أعلم الناس بالنحو والصرف ، وصالح بن جناح اللخمي ، وقد أدرك التابعين ، وكلامه مستفاد في الحكمة . . والنظام إبراهيم بن سيار البلخي ، وكان في جملة ما يحفظه الإنجيل ، والتوراة ، والزبور ، وتفسيرها . عدا

---

(4) معجم الأدباء جـ16 ص74 دار المأمون .

(5) البيان والتبيين الجاحظ ص347.

(6) أمراء البيان محمد كرد علي جـ2 ص317.

الشعر ، والأدب ، والغريب ، وصفه الجاحظ بقوله : (إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً ، فهو أبو إسحاق النظام) . وقال : (إنه ما رأى أحداً أعلم بالكلام والفقه منه)(7) . وموسى بن سيار الأسواري الذي قال عنه الجاحظ : (إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيعقد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأي لسان هو أبين . واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها)(8) . وإذا نهل الجاحظ من معين هؤلاء ، واغترف من فيض من عاصره، وفنّ من سبقه ، وغير هؤلاء ، فلا تعجب أن يتسنم عصره ، وأن يحيا من بعده على وميض علمه ، وأن يبقى هذا الأدب ، وذلك العلم قدوة للمقتدين ، ومنارة للسالكين . لقد انعقدت صلة بينه وبين إبراهيم بن سيار إمام المعتزلة حتى صار الجاحظ زعيماً لطائفة « الجاحظية » التي نسبت اليه وسميت باسمه .

« وقد اتصل الجاحظ بابن الزيات وزير المعتصم ، وأهداه كتاب الحيوان . فأجازه خمسة آلاف دينار . وأهدى كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه خمسة آلاف دينار . وأهدى كتاب الزرع

---

(7) المرجع السابق ص317.

(8) البيان والتبيين حـ1 ص382

والنخيل الى إبراهيم بن عباس الصولى فمنحه خمسة آلاف دينار . كما قدم للفتح بن خاقان كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة ، فصار الجاحظ غنياً . واعتبر نفسه بذلك صاحب ضيعة لاتحتاج الى تجديد وتسميد[9] .

وكان واسع الثقافة ، غزير العلم ، خبيراً بالناس وأحوالهم ، لا يكتفي بالمعرفة ، وإنما يتعداها إلى التجربة والاستنباط ، ولم يكتف بالكتب يأخذ منها ، والأساتذة يرتشف من علومهم ، بل كان يغشى المربد يتلقف اللغة مشافهة من الأعراب ، ويحضر مجالس الشعراء والأدباء ، ويسمع أشعارهم ومحاوراتهم ، ويتأمل ، ويوازن ، ويقارن . وكان له في النقاش والجدل والمناظرة باع طويل . اكتسبه من أئمة الاعتزال . وكانت قدمه تجره دائماً الى حلقات الإخباريين ، والقصاصين ، والمتندرين المتفكهين الساخرين ، مما يصادف هوى في نفسه ، وراحة لقلبه ، قال عنه أبو هفان : « لم أر قط من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين فيبيت فيها للنظر في الكتب »[10] . فألف عديداً من الكتب جاوز بها السبعين بعد المائة ، وربما كان أكثر تأليفه لامتداد عمره ، ولقضائه شطرا طويلا من حياته مريضا ، فاضطر الى ملازمة بيته ، وقطع فراغه بالكتابة والتأليف ، وربما كان سوء منظره سبباً في انصراف الناس عنه

---

(9) معجم الأدباء ـ لياقوت جـ16 ص106.

(10) الجاحظ حياته وآثاره طه الحاجري ص160 جـ1 دار المعارف سنة 1962.

فعنى بصناعة الكتب ، ليعرفوا أن وراء هذا الوجه المشوه نفساً جميلة ، وروحاً فكهة ، وذهناً وقاداً .

خطا الجاحظ بالكتابة الفنية خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلابة وبيان عذب ، واتخذ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعا لأدبه . واهتم بالألفاظ وبالمعاني معا . دون أن يجور أحدهما على الآخر. فهو بحق معلم العقل والأدب ، يضع أمام ناظريه إيصال المعاني إلى قارئه واضحة جلية في ثوب مناسب من الألفاظ ، فالشريف للشريف ، والخسيس للخسيس دون بريق أو بهرجة . « فقد كان يكره العناية الفائقة التي تجعل الكاتب عبد المجموعة من الألفاظ ، يجر اليها المعاني ويشدها شداً »[11] .

وإنما يعشق الأداء الدقيق لمعانيه ، ويعشق معه الوصف الحسي المشاهد ، عادلا عن المجاز ما استطاع فإن عمد إلى شيء منه فإنما للإيضاح وإظهار الصورة بطريقة تبرزها ، فعذوفه عن الخيال لأنه يجعل القارىء في متاهات تبعده عن الواقع ، وعن حقيقة المعنى المراد ، لذلك انتقى من التشبيهات ما وضح في الأفهام ، وقرب الى الآذان ، وتفاعل مع الأذهان ، فاتصفت كتبه بالواقعية التي ترويها كما هي دون تمويه أو تستر . فهو يسمي الأشياء بمسمياتها دون لجوء إلى الرمز ، ويصرح بذكر السوءات والعورات في غير مواربة ولا تستر . يرى أن ذلك أكثر إيضاحا للصورة ، وإبرازاً للفكرة ، وتمشيا مع الواقعية « ولكن واقعية الجاحظ لا تقف عند تلك التفصيلات

---

(11) الفن ومذاهبه في النثر العربي شوقي ضيف ص161 ط ثالثة دار المعارف .

الدقيقة ، والظواهر الحسية ، بل تستند الى تحليل نفسي واجتماعي ، وتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف »[12] .

وهذا الأدب الواقعي أعطانا فكرة واضحة عن عصره ومجتمعه بمحامده ومساوئه ، وعاداته وتقاليده ، بل بألفاظه .

فحريته الأدبية التي أباحت له ذكر العورات والإفصاح عنها بصريح أسمائها ، دفعته الى حرية مثلها في اللغة .

والحق أنه عاش الحرية بأجلى معانيها ، ومختلف أنواعها ، وشاعت في سائر مناحي حياته ، واتجاهاته ، فكانت له حرية في العلم ، وحرية في الدين ، وحرية في اللغة ، وحرية في الأدب ، وحرية في السلوك .

فحريته في السلوك : أبعدته عن قيود الزواج والالتزام بمسؤولياته . ونفرته من الكتابة اليونانية ومتطلباتها ، ونحته عن التزمت واتخاذ الهيئة الوقورة ، والسمت الجاد ، وقربته من مجالس الأنس والمنادمة واللهو والمجون .

وأهم ظواهر أدبه في كلامه ، وسلوكه ، وتفكيره ، وفي حياته العامة والخاصة ما امتاز به من روح فكهة مرحة عابثة ساخرة ، تقوم بالدعابة ، وتميل الى التهكم وتمزج الجد بالهزل ، وتخفف أعباء الحياة ، وثقل العلم بالمرح والضحك . وإذا بنوادره الغريبة ، وأفكاره

---

(12) فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ محمد المبارك ط2 دار الفكر بدمشق سنة 1965 ص 27 .

العجيبة ، وسخرياته اللاذعة تحبب إلينا الحياة ، وتدفعنا إلى مصاحبته ، وقراءة كتبه الشيقة ، التي تنقل قارءها « من باب إلى باب ، ومن فصل إلى فصل »(13) .

مرض الجاحظ في سنى حياته الأخيرة بالفالج والنقرس . حتى توطن الذباب بجانبه لآلامه . وحتى لو غرزت في جسمه المَسال لما أحس ، كما قال هو عن نفسه . ومات رحمه الله والكتاب على صدره « قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه »(14) .

وقد اختلفت الآراء في عام وفاته كما اختلفت من قبل في سنة ميلاده ، وإن كانت وفاته على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن الثالث الهجري(15) .

وكما أن ميلاده رغم اختلافهم فيه فإنه على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن الثاني الهجرة(16) .

وصفوت القول أن الجاحظ كان أمةً ، وكان دائرة معارف لا تزال حتى اليوم نتتلمذ على تراثه ، وننهل من فيض أدبه ، وغزير علمه ، ونمتع النفس والروح برواية فكاهاته ، والتحدث عن سخرياته ، ويَندر أن نجد أديباً أو باحثاً في الأدب ، أو ناقداً ، أو فكهاً أو صاحب

---

(13) الحيوان للجاحظ جـ3 ص7 .
(14) الإعلام للزركلي جـ5 ص339 ط2 .
(15) أبو الفداء في البداية والنهاية جـ11 قال ص7 : انه مات سنة 250 هـ .
(16) قال ابن الأثير في الكامل جـ5 ص351 إنه ولد سنة 155 هـ .

مذهب ديني أو فكري إلا وفي كتبه مقتبسات الجاحظ ، واستشهاد بآرائه ونقل عنه .

ويكفي دليلاً على سبقه وفضله ، وصلاحية أسلوبه وفكره ، وعلى أن اسمه سيظل باقياً على امتداد الأجيال خالداً ما تعاقب الليل والنهار .

رحم الله أبا عثمان . وجزاه عما قدم لأمته وللإسلام وللعالم العربي وللفكر الإنساني من خدمات جليلة أكرم الجزاء .

الفصل الثاني



من عوامل نبوغه في السخرية

يقدر على السخرية ويوفيها حقها الشخص المرح ، الفكه المجلس ، الحلو الحديث ، البارع التصوير ، السريع الملاحظة ، الدقيق المقارنة ، الحاضر البديهة ، فيتخير اللفظ الموجز ، والأسلوب السهل ، والكلمات المعبرة ، فيعمد إلى التعريض والتلويح ، والكتابة والرمز ، واللفتة والإشارة .

والجاحظ خلق من السخرية فناً مستوى القامة ، وطيد الأركان ، سامق البنيان ، بقدرته على التصرف في فنونها ، وتنويع أشكالها وضروبها ، فلقد ظهر في مجتمعه طبقات البخلاء ، والمغفلين ، والحمقى ، والشطار ، والموسوسين والمتعالمين « وسط سارت فيه الخفة والتهكم ، وعمه الميل الى العبث والتندر . » ومن هنا نشأ ميله الجزئي إلى المزاح ، شريطه ألا يخرج هذا المزاح عن حدوده . وكان على الجاحظ من جهة ثانية أن يقاوم أثناء مكثه في بغداد تياراً عاماً من الجد والكآبة والصرامة ، وهذا ما يعلل إشارته العديدة إلى فوائد الضحك(1) .

---

(1) أدب العرب مارون عبود ص 403 دار الثقافة بيروت سنة 1960 م

وهناك عوامل خلقت منه أستاذ السخرية منها :

1 ـ **أصله ووراثته** : « كان جد الجاحظ أسوداً ، يقال له فزاره ، وكان جمالاً لعمر بن فلح الكناني »[2] . فروح الخفة قد سرت إليه من الجد فزارة ـ الذي كان فكهاً مرحاً . وأم الجاحظ كانت تسخر في بعض الأحيان .

والدليل على بعض سخرياتها ما روى أن الجاحظ كان في حداثته مشتغلاً بالعلم ، وأمه تمونه ، فطلب منها الطعام يوماً . فجاءته بطبق فيه كراريس . فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به . !! فخرج مغتماً ، وجلس في الجامع ، ويونس بن عمران جالس ، فلما رآه مغتماً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث . فأدخله منزله ، وقرب إليه الطعام وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق ، واشترى الدقيق وغيره . وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدمتها إلي[3] .

فقد سخرت منه بقولها : هذا الذي تجيء به ، وبادلها سخرية بسخرية بقوله : من الكراريس التي قدمتها إليَّ .

2 ـ **دمامة خلقته وقبح هيئته** : كان الجاحظ قصير القامة . قال فيه أحمد بن سلامة الكتبي :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ

---

(2) معجم الأدباء حـ16 ص74 .

(3) المنية والأمل للمرتضى ص38 ، وأمراء البيان محمد كرد علي حـ2 ص318 سنة 1937 م

رجل ينـوب عن الجحيم بوجهـه وهوالقــذي في كل طرف لاحظ[4]

ويروي هو عن نفسه . « ما أخجلني أحد مثل امرأتـين ـ رأيت إحداهما في المعسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها . فقلت : انزلي كلي معنا . قالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى : فإنها أتتني وأنـا على باب داري . فقالـت لي : إليك حاجة وأريد أن تمشي معي . فقمت معها إلى أن أتـت بي إلى صائغ يهودي . فقالت له : مثل هذا . وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها . فقال : إنها أتت إلي بفص . وأمرتني أن أنقش لهـا عليه صورة شيطان . فقلت : يا ستي : ما رأيت الشيطان . فأتت بك ، وقالت ما سمعت »[5] إن لمظهر الإنسان وقوامه أثـراً في شخصيتـه . فالرجل الصحيح الجسم ، الحسن القامـة ، قد لا يحتـاج في إظهـار شخصيته ، والتأثير على غيره إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ، فبينما نجد الأول طبيعياً . . إذ نجد الثاني . . يتخـذ أحياناً وسائل ثعلبانية ، وقد يضطر إلى المداعبة في حديثه . فالإنسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلا تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية او الخلقية حتى يظهر شخصيته للملأ . « والجاحظ كان أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، وما لقب بهذا اللقب الذي كان مبغضاً إليه إلا لأنه كان جاحـظ العينـين

---

(4) الجاحظ جورج غريب ص20 .

(5) أمراء البيان محمد كرد علي حـ2 ص464 ,465

بارزهما »[6] . « وجحـوظ العينـين دلالـة على أن صاحبهما وقـح مهذار »[7] .

والجاحظ المطبوع على الفكاهة الساخـرة ، المشهـور ببراعتـه في الاستدلال والتعليل قادر على أن يجعل الجميل الوسيم قردا ، والبدر المنير قطعة من الفحم ، ومن مكنته بلاذع سخرياته أن يخرس الألسنة الهازئة ، ويخيف من تسول له نفسه أن يناله بلفظ جارح ، أو بإماءة هازلة . « قيل لأبي هفان . لم لا تهجـو الجاحـظ ؟ وقـد ندد بك ، واخذ بحتفك ؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله ! . والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة »[8] .

ولقد وضع رسالة التربيع والتدوير يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب فطبقت شهرتها الآفاق ، واستمرت نموذجاً للسخرية اللاذعة على مر الأيام ، وكر الأجيال ، ولـو أنـه انتحـى فيهـا ناحية السـب الصريح ، والهجاء المكشوف ، لما ظل لها هذا الأثر القوي ، ولما كتب لها البقاء والخلود .

والتاريخ يروي لنا الكثيرين ممن سلبوا صباحة الوجـه ، وجمـال الخلقة ، ومنحوا الروح الفكهة ، والطبيعة الساخرة .

فشيخ فلاسفة الإغريق سقراط كان « قبيح المنظر ، فهو قصير ،

---

(6) في عم النفس محمد الابراشي حـ2 ص389, 390 المطبعة المصرية سنة 1934

(7) أخبار الحمقى والمغفلين ابن الجوزي ص28 ط المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت .

(8) معجم الأدباء ياقوت حـ16 ص99 .

بدين ، دميم ، بارز العينين ، كبير الأنف في قبح ، واسع الفم ، بالي الثياب »[9] . « مشوه الخلق ، جاحظ العينين ، ضخم الشفتين »[10] .

وكان التهكم من جملة أساليبه في تقرير فلسفته .

وبشار بن برد كان أعمى مشوه الوجه ، من أثر جدري أصابه ، فصار قبيح المنظر »[11] .

وقد ضرب المثل بقبحه وقبح الجاحظ .

قال مخلد بن علي السلامي في هجاء ابن المنير : -

رأيتك لا تجلب السود إلا   إذا هو كان من عصب وجلد
أراني الله وجهك جاحظياً   وعينك عين بشار بن برد

وفولتير ، ومولير ، ورابليه وهم أشهر من نبغ في السخرية في فرنسا وملأت مؤلفاتهم الساخرة الآفاق .

كان ضعافاً ضئالاً . لا يشكون الا من السقم والاعتلال . يقول الأستاذ العقاد عن فولتير : « إنه كان مشهوراً بضآلته وهزاله ، ورجفانه من فرط العصبية لأقل هياج يعتريه ، وكان مولعا بالهجاء اللاذع ، والسخر المؤلم »[12] .

---

(9) قصة الفلسفة اليونانية أحمد أمين ص110 ط لجنة التاليف والنشر والترجمة سنة 1949 م .
(10) الجاحظ محمد الابراشي ص6 ط نهضة مصر
(11) المنتخب طه حسين وآخرون حـ2 ص182 . دار الكتب سنة 1931 م
(12) ساعات بين الكتب العقاد ص368 ط الرابعة مكتبة النهضة سنة 1968 م

والجاحظ كان يشبهه من وجوه كثيرة . « فقد كان فولتير عالماً أديباً ، وفيلسوفاً ساخراً ، وكذلك كان الجاحظ ، وكان فولتير كاتبا من كتاب الثورة الفرنسية كما كان الجاحظ كاتبا للمعتزلة وممهداً للثورة الأدبية ، وذلك بتقريبه موضوعات الأدب من أذهان العامة ، وكلاهما كان يمتاز في أسلوبه بالسخرية والفكاهة »(13)

وإمام العبد المضروب به المثل في الدعابة والسخرية . كان زنجياً بمعنى الكلمة لولا فصاحة لسانه ، ولولا أنه ولد وعاش في مصر ففطر على أخلاق أهلها ، وأخذ بعاداتهم ، وسائر اسبابهم ، « فقد كان غليظ المشفرين ، أفطس الأنف ، محمر الحدقتين ، أملد العارضين ، مفلفل شعر الرأس ، أما لون جلده فأشد من فحمة الدجى سواداً »(14) .

وعبد العزيز البشري كان « طويل القامة ، نحيف العود ، محني الظهر ، قمحي اللون ، ولم يكن حلو التقاسيم ، جميل الملامح ، إنما كانت ملامحه لا يتسق بعضها مع بعض ، وكانت عيناه دائما حمراوين ، تنفثان اللهب ، أما أسنانه فكانت منفرجة غير منتظمة ، وكانت شفتاه عريضتين تتلمظان للطعام ، وكان شعره متناثرا كثا . أما شعر حاجبيه فكان مبعثرا ، حتى لا تستطيع أن تجمع شعرة على شعرة ، وكان البشري أفوه الثغر ، إذا ضحك انفرج وجهه عن ثغر واسع ، وقهقهة عالية ، ولم يكن أنيقا في ملبسه »(15) . وهو من أعلام الساخرين .

---

(13) الجاحظ سلسلة تراجم أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامي الابراشي ط نهضة مصر .

(14) المختار عبد العزيز البشري حـ ٢ ص126 مطبعة المعارف .

(15) عبد العزيز البشري جمال الدين الرمادي سلسلة أعلام العرب عدد24 ص10, 11 .

3 ـ **طبيعته وفطرته** : ـ طبع الجاحظ على المرح والفكاهة ، وخلقت مع روحه الخفة والدعابة ، وسرى في جبلته السخر سريان الدم في شرايينه ويكفي دليلاً على سخريته ، وأنها كانت فيه فطرة وسجية : أنه كان يبدأ الناس بالتهكم منهم ، وانه كان يسخر من نفسه ، ويروي سخريات الناس منه ، دون غيظ أو حنق ، قال : « ما غلبني أحد قط إلا رجل وامرأة . أما الرجل : فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق ، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة ، طويل اللحية ، وبيده مشط يمشطها ، فقلت في نفسي : رجل قصير بطين المعي ، فاستزريته . فقلت : أيها الشيخ ، لقد قلت فيك شعرا . فترك المشط من يده وقال : قل . فقلت :

كأنك صعوة في أصل حش أصاب الحش طش بعد رش

فقال لي : اسمع جواب ما قلت . فقلت : هات . فقال :

كأنك جندب في ذيل كبش تدلدل هكذا والكبش يمش .

وأما المرأة : فاني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكباً على حمارة ، فظرطت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : وي ! حمارة الشيخ تضرط! فغاظني قولها . فقلت لها : إنه ما حملتني أنثى قط إلا ضرطت . فضربت بيدها على كتف الأخرى ، وقالت : كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد »[16] .

فهو يبدأ بالسخرية من عرفه ، ومن لم يعرفه ، بسبب ومن غير

---

(16) تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي حـ12 ص216 م السعادة سنة 1931 م .

سبب ، ثم يروي سخريات الناس منه ، ويخص بالـذكر ما أفحمه وأخجله وغاظه ، فالمرح من صميم طبعـه ، والسخـرية لا تفـارق لسانه ، لتتابع ابتساماته المرحة ، وضحكاته العريضة . « وهو بذلك يلتقي مع برنارد شو في فلسفته تلك . فقد كان يقول : إذا لم أضحك لم يستطع الناس احتمالي »(17) .

ولقد أنشأ الجاحظ عملا أدبياً متكاملاً في السخرية ، من هيئة أحمد بن عبد الوهاب والعبث بما فيه من عيوب جسمية وهو رسالة (الربيع والتدوير) يقول الجاحظ : « كان أحمـد بن عبـد الوهـاب ، مفرطـا لقصره ، ويدعي أنه مفرط الطـول ، وكان مربعـا ، وتحسبـه لسعـة جفرته ، واستفاضته خاصرته ، مدورا ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظـم ، وكان طويل الظهـر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظـم ساقـه ، يدعـي أنـه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيـم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو من يدعي أنه معتدل الشباب ، حديث الميلاد »(18) .

وفيها يخاطبـه قائـلاً : « فأنـت المديد ، وأنـت البسيط ، وأنـت الطويل ، وأنت الوافر ، وأنت المتقارب ، فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ، إن استفاضة عرضك ، أدخلت

---

(17) بلاغة الكتاب محمد نبيه حجاب ص300 المطبعة الفنية الحديثة .

(18) مجموعة رسائل الجاحظ ص82 ط ساس طبعة أولى التقدم .

الضيم على ارتفاع سمكك . وإن ما ذهب منك عرضا ، قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا في طولك ، لقد اتفقوا في عرضك »[19] .

4 ـ مجتمعه وبيئته :

أ ـ بيئته العامة : نشأ الجاحظ « يبيع الخبز والسمك بسيحان »[20] ويختلف الى كتاب القرية ، يتلقى مبادىء العلوم مع أمثاله من الصبيان ، وهذان مجتمعان يموجان بالنوادر ويحفلان بالأفاكيه والطرائف ، ويعتمدان على النكتة الساخرة ، والغمزة الضاحكة ، تنصب على الرفاق المشترين ، أو المعلمين أو غيرهم ، ممن يجاوز المألوف ، ويطغى على العرف .

فإذا ما انتقلنا إلى المجتمع الواسع ، والبيئة الرحبة في الدولة العباسية آنذاك : وجدناها حافلة بكل شيء ، مليئة بكل عجيب ، مكتظة بشتى المتناقضات . فهناك . الترف ، والسرف ، والحرية الفضفاضة البعيدة عن التزمت ، القريبة من الفوضى ، واطراح الحشمة ، ونبذ التقاليد ، والتحلل من التعاليم السامية ، والأخلاق الكريمة ، طرب وغناء ، وسحر ورقص ، واتخاذ الندماء ، وعقد مجالس الأنس والفكاهة ، ودعوة الخلان الى المجون والفسوق ، ومعاقرة الخمر ، والغزل بالمذكر ، ومعاملته معاملة الأنثى ، وذكر السوءات والعورات . . . . الخ .

---

(19) المصدر السابق ص87 ,88 .

(20) معجم الأدباء ياقوت حـ16 ص47 تحقيق د . أحمد فريد رفاعي .

فلقد جاوز مجتمع الجاحظ حدوده ، وزاد عن طبعه ، فصار وضعاً للذم والهزء ، يقول الجاحظ : « وأنا مبين لك . وأنا مبين لك الحسن . هو التمام والاعتدال ، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال ، كالزيادة في طول القامة ، ودقة الجسم ، أو عظم الجارحة من الجوارح ، أو سعة العين ، أو الفم ، مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن ، وإن عدت زيادة في الجسم ، والحدود حاضرة لأمور العالم ، ومحيطة بمقاديرها الموقوفة لها، فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خُلق حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور فهو قبيح مذموم [21] » .

وبهذا رفع الجاحظ قاعدة القبيح والمذموم الذي يسخر منه ، ويهزأ به ، شهد كل ذلك عن قرب وعاينه عن كثب ، وانفعل بهؤلاء وأولئك ، فإذا المجتمع كله مهيأ للضحك ، والإضحاك ، باعث على التهكم والسخر ، تمضية للوقت .

والجاحظ بما ركب في طبعه من لماحية يلتقط النوادر ، ويحفظ الطرف ، ويتسمع الفكاهات ، ويصغي الى الأحاديث الهازلة ، فتتسع مداركه ، ويتفاعل مع ما يسمعه ويراه ، فيولد الجديد ، وينسج العجيب ، ويوشح كتبه بتلك المضاحيك ، فإذا هو كاتب ساخر ، وأديب متهكم ، وإذا الدنيا بأسرها تقبل على كتبه الساخرة ورسائله المتهكمة . فترى ألوانا من المتعة الذهنية ، وأنماطا من الكتابة

---

(21) ثلاث رسائل . الجاحظ نشر يوشع فنكل ص65 ط ثانية م السلفية سنة 1382 هـ

المبتدعة ، خلط فيها الجد بالهزل ، والعبوس بالضحك ، والسخرية الماجنة بالسخرية الهادفة ، مما يشهد له بالحذق والأستاذية ، وعلو الكعب ، وقوة التأثير .

ب ـ بيئته الفكرية :

فلقد كان لها أكبر الأثر في نمو السخرية عنده ، وحذقه لها ، وبراعته فيها ، فلقد نشأ في الكتاب حتى كبرت سنه ، قصد شيوخ البصرة[22] وأئمتها في العلوم والأدب ، ولزمهم ، ومن شيوخ البصرة الذين ما كانوا يضيعون فرصة السخرية إن سنحت لهم ، ويخلقونها خلقا إن لم تأتهم طوعاً ، أبو عبيدة معمر بن المثنى[23] وقد كان فكه المجلس ، مولعا بالتعريض ، والتلويح ، والتهكم ، والسخرية ، ومنهم إبراهيم بن سيار النظام[24] وكان مشهوراً بالدعابة والسخرية ، وقد لازمه ملازمة شديدة ، تركت أثرها في صفحات عقله ، ومنهم ثمامة الأشرس[25] وقد نقل عنه الجاحظ كثيراً من أدبه . كما كان أستاذه في المجون والفكاهة والنادرة اللاذعة[26] .

ومنهم أبو الهزيل العلاف إمام الاعتزال ، وكانت السخرية تشيع

---

(22) معجم الأدباء ـ ياقوت حـ16 ص75.

(23) هو بصري كان إماما في اللغة اوالأخبار توفي سنة 211 هـ .

(24) احد شيوخ المعتزلة ، واستاذ الجاحظ في علم الكلام ، وكان بليغاً لسناً ، توفي بالبصرة سنة 221 هـ .

25 من زعماء المعتزلة توفي سنة 223 هـ .

(26) ضحى الإسلام ـ أحمد أمين حـ3 ص151 ط لجنة التاليف سنة 1936 م .

في أحاديثه . ومن أساتذته أيضا الذين يميلون إلى السخرية . أبو سعيد بن أوس الأنصاري[27] وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي[28] ،

وأبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش[29] . وقد كان بارع النكتة ، مشوه الخلق ، أجلح ، وطالت ملازمة الجاحظ له ، وصحبته إياه ، لتشابههما في الطبع والقبح .

ولقد تعددت في عهد الجاحظ الفرق الدينية ، وكثرت المذاهب ، وتنوعت النحل ، فكان منها الصابئة ، والرافضة ، والمرجئة ، والمانوية ، والزرادتشية ، والجبرية ، والثنوية .

كما تعددت المدارس ، ولكل مدرسة طابعها وطريقة تفكيرها . منها مدرسة الرها ، ونصيبين ، وحران ، وجند ياسبور .

وتنوعت الثقافة الوافدة من هندية ، ويونانية ، وفارسية ، إلى بابلية ، وفينيقية ، ومصرية ، ورومانية ، وآشورية ، وكلدانية .

وكثرت طوائف المثقفين في الدولة . فكان هناك : الشعراء ، والأدباء ، والكتاب ، والمترجمون ، والمنشدون ، والمغنون ، والندماء ، والمرفّهُون عن الخلفاء والأمراء . . . .

هذه الثقافات المتعددة ، والنحل المتفاوتة ، والمذاهب

---

(27) كان إماما في النحو واللغة والأدب والنوادر والغريب توفى سنة 215 هـ .

(28) كان إماما لغويا أديبا بليغاً توفى سنة 293 هـ .

(29) كان عالماً نحوياً شهيراً .

المتضاربة ، والمدارس المتنوعة ، والطوائف المتباينة ـ كان من المحتم أن تتعارك ، وتتصارع ، وينتصر كل فريق لرأيه ، ومدرسته ، ومذهبه . فيشيع الهجاء ، وتنتشر السخرية ، ويكثر الهمز واللمز .

ولقد عرف الجاحظ مجتمعه ، وخبر طوائفه ، واعترك معها ، محبذا رأياً ، ومعارضاً آخر ، مرة بالعنف والقسوة ، ومرات باللين والهوادة . طوراً بالهجاء اللاذع ، والذم المقيت، وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة ، والتهكم الممض .

فقد آمن « بحرية الفكر ، ولهج بها ، فلم يقلد غيره ، ولم يذب شخصيته في شخصية سواه . ولهذا تهكم أشد التهكم بما لا يسيغه العقل ، واعترض على كثير من العلماء والفلاسفة فيما لم يقتنع به »[29] .

وما كان كالجاحظ أحد في سعة اطلاعه ، ووفرة ثقافته ، وغزارة مادته ، « حدث أبو هفان قال : لم أرَ قط ، ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ »[30] .

وكان علمه لا يقف عند حد ، ويشهد بذلك قوله : « إذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر . فاعلم أنه ما يريد أن يفلح »[31] .

---

(29) الجاحظ . أحمد الحوفي ص48 دراسات في الإسلام العدد38 .

(30) معجم الأدباء لياقوت حـ16 ص 75

(31) معجم الأدباء ياقوت حـ16 ص18 .

وقول أبي الفضل ابن العميد : « ثلاثة علم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس ، أما الفقه : فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام : فعلى أبي الهزيل وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة : فعلى أبي عثمان الجاحظ »[32] . وفي بلاط المتوكل على الله . اتصل برجال تخصصوا في الهزل والفكاهة والسخرية « ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس . ظهر في مجلسه اللعب ، والضحك ، والهزل قد استفاض في الناس أثره إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك ، والمحدث له . ففي بلاط المتوكل عرف الجاحظ أبا العنبر الهاشمي ، وأبا العنبس ، والجماء ، ولعله عرف أيضاً أبا العيناء الذي تربطه به صداقة متينة ، كما تشهد بذلك النوادر المبثوثة في الكتب »[33] .

هذه البيئات الفكرية المتنوعة التي خالطها الجاحظ ، والمجتمع المائج المفعم بالمتناقضات الذي عاش فيه ، وما فطر عليه أبو عثمان ، من عشق للسخرية ، وحب للدعابة والمرح ، وما رزأه الله به من قبح شكل ، وزرى هيئة ، وما ورثه عن أمه وأسرته .كان له الأثر البالغ في نمو ملكة السخرية عنده، والترقي بها إلى الحد الذي ضمن لها على مرّ الأجيال البقاء والخلود ، يمدها ذكاؤه ، ولماحيته ، ورهافة حسه ، ودقة ملاحظته ، وقدرته على عقد الصلات والروابط ، وخبرته بالناس ، وطبائعهم ، وقدرته على الابتكار والإبداع ، وامتلاكه نواصي

---

(32) المصدر السابق حـ16 ص103 .

(33) مروج الذهب : المسعودي حـ2 ص391 كتاب التحرير تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مؤسسة الطباعة بدار التحرير .

الكلام ، واستطاعته أداء الصورة المتقنة البارعة ، بالعبارة المناسبة ، التي تضيف إليها الألوان والظلال ، مما جعله أستاذ هذا الفن ، والمقدم فيه .



□ الباب الثاني

موضوعات السخرية في أدبه



تمهيد

عاش الجاحظ في مجتمعه بعين الخبير النقادة ، وفكر الفيلسوف الحكيم ، فكشف عوار من شاء بسخريته ، فشملت من عرفهم ، ومن سمع بهم ، ومن قرأ لهم ، يقول في ذلك : « ولسنا من تسمية الأصحاب المتهكمين ولا غيرهم من المستورين في شيء . أما الصاحب : فإنا لا نسميه لحرمته ، وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولا يجب لمن كان في مثل حاله . وإنما سمي من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف ويجعل ذلك الظرف سلماً الى منع سيئة »[1] .

سخر من كل تصرف غريب ، ومن كل قول عجيب ، وهزأ ممن جاوز حده ، وخالف مجتمعه ، طمعاً في رده إلى نصابه ، وإرجاعه إلى قرابه ، أو رغبة في التسلية والمرح ، والترويح عن النفس . فلا عجب أن وجدنا تيار السخرية يسري في كل كتاباته ، وينتشر في جميع ما أثر عنه ، وما روى من أقواله ، ولوكان الموضوع جدا ، أفكاره عميقة ، يمتلىء بالأدلة ، ويعتمد على البراهين . أو دينياً ، كتفسير آية وشرح

---

(1) البخلاء للجاحظ تحقيق طه الحاجري ص57 .

حديث . بل لقد أفرد للسخرية رسائل كرسالة التربيع والتدوير . وقد تناول بسخرياته شتى الموضوعات وتنوع الخصال ، وغريب الأوضاع .

ومن أشهر هذه الموضوعات التي دارت عليها سخرياته ما يلي .

□ □ □

الفصل الأول



العيوب الجسمية

إن العيوب الجسمية ، والشذوذ الخلقي ، من أهم موضوعات السخر وأكثرها رواجاً لدى الأدباء والشعراء .

ويبدو هذا العيب أكثر ما يبدو في الوجه ، فقد يكون كبير الأنف ، واسع الفم ، أو صغير العينين ، أصلم الأذنين ، أو بارز الأسنان ، غليظ الشفتين ، وقد لا تتناسق هذه الأعضاء وكأنها في عراك ، وكأنها وضعت في غير أماكنها . فيبدو الوجه تافه المعالم ، مستهجن القسمات ، وهناك من الوجوه « ما يبدو مشتغلا بالبكاء بدون انقطاع . ومنها ما يبدو ضاحكاً ، أو صافراً باستمرار . ومنها ما يبدو كأنه ينفخ في بوق خيالي إلى الأبد »[2] .

وإذا كان الحال كذلك في السخرية من الخلقة ، ولا حيلة للمرء فيها ، فما بالك بالزي المخالف ، والبذة الشاذة ، والسمت الغريب ، مما يختاره الانسان وينتقيه ، ويستطيع تغييره وتبديله ، ونظرتنا إليه عقلية محضة بعيدة عن الانفعال العاطفي ؟؟!

---

(2) الضحك : هنري برجسون ترجمة سامي الدرومي ، وعبد الله عبد الدايم ص23 .

إن النفس لا تملك إلا أن تسخر ممن لبس قبعة وسروالا ، وأطال لحيته ، وحمل في يده مظلة ، ومشى حافي القدمين ، فبدأ في هيئة غريبة ، ومنظر مضحك .

ومن هذه الأنماط نماذج متعددة ، ملأت عصر الجاحظ ، فكتب عنها ، وسخر منها ، يقول : « وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينيه ، وسكر ، وسدر ، وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ، ولم يسمع ولم يبصر »(3) .

ويقول في السخرية من هيئة رجل لم تعجبه : « كنت مجتازاً في بعض الطريق فإذا أنا برجل قصير بطين ، كبير الهامة ، طويل اللحية ، وبيده مشط يمشطها »(4) .

▣ ▣ ▣

---

(3) البخلاء الجاحظ تحقيق طه الحاجري ص 79

(4) تاريخ بغداد الخطيب البغدادي جـ12 ص216 .

الفصل الثاني



غرابة الطباع والأخلاق

عمر المجتمع العباسي بمن شذت أخلاقهم ، وغربت طباعهم ، فانغمسوا في مرذول العادات ، ومستهجن الأخلاق ، فكان الناقد الموهوب الجاحظ الذي أدخلهم أتون هزئه ، واتخذهم وقود سخره ، فجسم عيوبهم ، ليروها في مرآة ضمائرهم، وكان من أشهر هذه الطباع ، وأبرز تلك الأخلاق التي تهكم بها الجاحظ وعبث بأربابها .

1 ـ البخل :

كثر البخلاء في عصر الجاحظ ، وامتلكوا الثروات ، وتحكموا بأموالهم في المجتمع ، التاجر الرابح كان يضن ويبخل . يقول الثعالبي : « ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة . والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدقيق »[5] . غاص الجاحظ في باطن البخيل ، وعرف سريرته ذلك لأنه « مولع بهذا النوع من البحث ، والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبيين الحركات الشعورية المختلفة وملاحظة الصلات بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة ، من كلمة عابرة ، أو إشارة طارئة ، أو لفتة سريعة

---

(5) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص9 .

معجلة »[6] .

ولقد أفرد للبخيل كتاباً خاصاً ، وهو كتاب البخلاء ، وجعل الدرهم عند البخيل يساوي دية مسلم . إذ « الدرهم عشر العشرة ، وإن العشرة عشر المائة ، وإن المائة عشر الألف ، وإن الألف عشر العشرة آلاف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم الى دية مسلم »[7] .

وكيف يخرج الدرهم من حوزته ، ويوصف بعد ذلك بإيمان أو صلاح ، وقد طرد من جيبه وبيته دلالة الإسلام وقاعدته الأولى ؟ .

« إن البخيل يستكثر ذلك ويقول : والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريده . وعليه حسبي الله ، أو توكلت على الله ، فيظن انه قد خرج من كنف الله جل ذكره حتى يرد الخاتم في موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام كما هو ؟! إن هذا لعظيم »[8] .

ويروي لنا صورة ساخرة لتمار « كان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال ، فربما احتبس ، فاتهمه بأكل التمر . فسأله يوماً فأنكر ، فدعا بقطنة بيضاء ، ثم قال : امضغها ، فمضغها ، فلما أخرجها وجد حلاوة وصفرة ، قال : هذا دأبك كل يوم وأنا لا أعلم . أخرج من

---

(6) البخلاء الجاحظ ص50 .
(7) البخلاء الجاحظ حـ2 ص86 .
(8) المصدر السابق ص96 .

داري »[9] .

وتلك صورة أخرى أشد بخلا وأكثر تنفيراً للنفوس في أسلوب ساخر لاذع يفضح الشح ويبين كيف يبلغ بصاحبه مداه . يقول : « كان عندنا رجل من بني أسد ، إذا صعد بن الأكار الى نخلة له يلتقط له رطباً . ملأ فاه ماء ، فسخروا به ، وقالوا له : إنه يشربه ويأكل شيئاً على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل بال في يده ، ثم أمسكه في فيه ، والرطب أهون على أولاد الأكرة وغير الأكرة من أن يحتمل فيه أحد سطر هذا المكروه ولا بعضه . قال : فكان يملأ فاه ماء أصفر ، أو أحمر ، أو أخضر لكيلا يقدر على مثله في رؤوس النخل »[10] .

وقال الجاحظ ساخراً من أهل مرو : « لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة ، إلا ديكة مرو . فإني رأيت ديكة مرو ، تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب . قال : فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد ، وفي جواهر الماء ، فمن ثمَّ عمّ جميع حيواناتهم »[11] .

ولأن « يطعن طاعن في الإسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني ، وليشق عصا الطاعة أهون عليه من شق رغيفه ، لا يعد الثلمة في عرضه ثلمة ، ويعدها في ثريدته من أعظم الثلم »[12] .

---

(9) نفس المصدر ص59 جـ2 .

(10) البخلاء للجاحظ جـ2 ص60 .

(11) المصدر السابق ص46 جـ1 .

(12) نفس المصدر ص100 .

2 ـ التطفل :

ظهرت في المجتمع العباسي طائفة من الناس أحبت طعام الغير ، وهامت به ، وملك عليها سمعها وبصرها ، فأقبلت على الولائم ، وحفلت بالأعراس ، فتتبعت أخبارها ، ورمت بنفسها في أحضانها ، وشاركت فيها ، دون أن تدعى إليها ، مع عدم حاجتها لذلك . حتى نعت أربابها باسم « الطفيليين » نسبة إلى « طفيل الأعراس » زعيمهم في ملء معدته ، من الولائم . يصفه الجاحظ بقوله : « كان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن غطفان يسمى طفيل . كان أبعد الناس نجعة في طلب الولائم والأعراس ، فقيل له لذلك : طفيل العرائس ، وصار ذلك نبذاً له ، ولقباً لا يعرف بغيره ، فصار كل من كانت تلك طعمته يقال له : « طفيلي »[13] .

ومن صفات الطفيلي : حسن المظهر ، وجمال الهيئة ، وخفة الروح ، وإجادة الدعابة .

وكان طفيل الأعراس يقول : « وددت لو أن الكوفة بركة مصهرجة فلا يخفى عليّ من أعراسها شيء »[14] .

ومن أجمل اعتذارات الطفيليين حضورهم موائد لم يدعوا اليها قول شاعرهم :

نحن إذا دعينا أجبنا ومتى تنسى يدعنا التطفيل

(13) البخلاء . الجاحظ جـ2 ص78 .

(14) المصدر السابق ص78 تحقيق : طه الحاجري .

ونقـل علنـا دعينـا فغبنا وأتانـا فلـم يجدنـا الرسول

وأتى طفيلي طعاماً لم يدع اليه . فقيل له : من دعاك ؟ فأنشأ :

دعـوت نفسي حـين لم تدعني فالحمـد لي لا لك في الدعوة
وكان ذا أحسـن من موعد خلفـه يدعـو إلى الجفوة[15]

وقد اتخذ التطفل مادة ثرة للسخرية ، ومعينـاً لا ينضـب للهـزء والتهكم ، وتناول الجاحظ هذا النوع من الناس بالسخرية البارعة . ومن سخرياته في ذلك : « كان قاسم شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذر المؤاكلة ، وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على طعام نفسه ، وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط ، فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة حتى يجر معـه ابنـه ابراهيم ، وكان بينه وبين ابراهيم ابنه في القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين، فكانا اذا تقابلا على خوان ثمامة ، لم يكن لأحد على أيمانها وشمائلها حظ في الطيبات ، فأتوه يوماً بقصعة ضخمـة فيهـا ثريدة كهيئة الصومعة مكللة باكليل من عراق بأكرم ما يكون من العراق ، فأخذ قاسم الذي يستقبله ، ثم أخذ يمنة ، وأخذ ما بين يدي من كان بينه وبين ثمامة ، حتى لم يدع الا عرقاً قدام ثمامة ، ثم مال إلى جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك الصنيع ، وعارضه ابنه وحاكاه ، فلما أن نظر ثمامة الى الثريدة ، مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ، واللحم كله بين يديه ، وبين يدي إبنه إلا قطعة واحدة بين يديه ، تناولها ، فوضعهـا

---

(15) المختار : عبد العزيز البشري جـ2 ص141 .

قدام إبراهيم ابنه ، فلم يدفعها ، واحتسب بها في الكرامة والبر[16] .

وقال أبو عثمان : « وكان رجل يغشى طعام الجوهري ، وكان يتحرى وقته ، ولا يخطىء ، فإذا دخل القوم يأكلون . وحين وضع الخوان ، قال : لعن الله القدرية ، من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام ، وقد كان في اللوح المحفوظ أني سآكله . فلما أكثر من ذلك قال له رباح : تعال بالعشى أو بالغداة فإن وجدت شيئاً فالعن القدرية ، والعن آباءهم وأمهاتهم »[17] .

3 ـ البلادة والإهمال :

إذا كان الشخص مهملاً ، بليد الأحساس جامد العاطفة ، خامد الشعور ، يرى المثير فلا يثور ، ويُستغضب فلا يغضب ، كان موضوعاً للسخرية ، ونموذجاً رائعاً للإضحاك ، ومجالاً فكهاً للتهكم من الجاحظ ، وكان له منها مدد لا ينفد، قال : « قال الخليل : كان أبو قحطية يستغل ثلاثة آلاف دينار ، وكان من البخل يؤخر تنقية بالوعته إلى يوم المطر الشديد ، وسيل المثاغب (والسيل المباغث) ليكتري رجلاً واحداً فقط ، يخرج ما فيها ، ويصبه في الطريق ، فيجرفه السيل ، ويرد به إلى القناة ، وكان بين موضع بئره والصب قدر مائتي ذراع ، فكان المكان زيادة درهمين يحتمل الانتظار شهراً ، أو شهرين ، وإن هو جرى في الطريق ، وأذى به الناس »[18] . إنه

---

(16) البخلاء ـ الجاحظ تحقيق طه الحاجري ص198 ص199 .

(17) المصدر السابق ص147 .

(18) البخلاء : الجاحظ ص113 ,114

البخل الذي يؤدي الى بلادة الشعور ، وإهمال الواجب ، وعدم إحساس المرء بنفسه ، كإنسان له كرامته واحترامه .

وقال الجاحظ ساخراً من المهملين الذين لا يتثبتون من كلامهم، ولا يقيمون عليه الدليل ، ويلقونه دون فحص وتمحيص ، « إن بعض أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الحية حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم وحواء ، وخدعهما على لسانها بعشر خصال : منها شق اللسان . قالوا : ولذلك ترى الحية إذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها ، لترى الضارب عقوبة الله ، كأنها تسترحم . وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا لحية كانت عنده تتكلم »[19] .

4 ـ الكذب والمبالغة :

الكذب والادعاء ، والمبالغة والغلو ، صفات خارجة عن الفطر المستقيمة ، والطباع السوية ، فالكاذب والمبالغ الدعي مستخفان بعقل السامع ، ويتلاعبان به ، فإذا كان السامع عالماً حقيقة الأمر ، ثارت حفيظته ، وثأر لكرامته ، في صور مختلفة ، منها السخرية ، يكشف قناعه ، ليوقعه في شراكه ، فتنقلب سخريته عليه ، ويصير هزأة بين أقرانه ، والجاحظ يستغل هذه الصفة في بعض معاصريه فيهجم عليهم بحارّ سخرياته فيقول : « إن أحمد بن الخاركي كان بخيلاً ، وكان نفاجاً وهذا أغيظ ما يكون منه ، وكان يتخذ لكل جبة أربعة أزرار ، ليرى الناس أن عليه جبتين ، ويشتري الأعزاق

---

(19) الحيوان ـ الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون جـ6 ص74 ، 75

والعراجين ، والسعف من الكلأ ، فإذا جاء الجمال إلى بابه تركه ساعة ، يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها . وكان يكتري قدور الخمارين التي تكون للنبيذ ، ثم يتحرى أعظمها ، ويهرب من الحمالين بالكراء ، كي يصبحوا بالباب يشترون الداذي والسكر ، ويحبسون الجمالين بالكراء ، وليس في منزله رطل دبس »[20] .

ومن الكذب المرذول ، والمبالغة الممقوتة قول سليمان : « اطلبوا لها هذه العقرب فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان . فقالت العجوز : قد برئت ، وقد سكن وجعي ، ولا حاجة لي في هذا العلاج . قال : فأتوه بعقرب . لا والله أن يدري أهي تلك أم غيرها ، فأمر بها فأمسكت فقال : أنشدك بالله والدين ، وأرسلها عليها فلسعتها فغشي عليها ومرضت زمانا ، وتساقط شعر رأسها . فقيل لسليمان في ذلك : فقال : يا مجانين لا والله . إن رد عليها إلا اللسعة الثانية ولولا هي لقد كانت ماتت »[21] .

وهذا سخر من الكذب ، وادعاء العلم ، والمبالغة فيهما ، وانتحال صاحبهما الأسباب والعلل ليبرهن أنه صادق وعالم ، ويقال له في ذلك مع ثبوت كذبه ومبالغته .

5 ـ الخوف والجبن :

يضطرب الجبان لوقع أقدامه ، ويفرق جبينه حين يرى ظله ،

---

(20) البخلاء للجاحظ حـ2 ص49 تحقيق العوامري والجارم .

(21) الحيوان : حـ5 ص111 .

وتطير نفسه شعاعاً لتخيله أشياء لا حقيقة لوجودها ، أو لتهويله التافه ، وتخيله الضئيل ، فيظن الفأر فيلاً ، والهر نمراً ، والكلب لصاً ، وهذا التصرف يكون محل نقد ومجال تهكم وهزء .

ويزداد السخر إذا نسبته الى من تظن الشجاعة صفة أصيلة فيه . يقول الجاحظ في كتابه الحيوان : « كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقول له عروة بن مرثد ، نزل بني أخت له في سكة بني مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرج رجالهم الى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في مسجدهن ، فلم يبق في الدار إلا كلب يعس . فرأى بيتاً فدخل فأغلق الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء . فظنوا أن لصاً دخل الدار ، فذهبت احداهن الى أبي الأعز . وليس في الحي رجل غيره ، فأخبرته . فقال أبو الأعز : إيه . يا ملأمان أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضاً لعارف فهل أنت إلا من لصوص بني ماذن ، شربت حامضاً خبيثاً حتى إذا دارت الأقداح في رأسك منتك نفسك الأماني وقلت : دور بني عمرو ، والرجال خلوف ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن ، سوأة والله ، ما يفعل هذا الأحرار ، لبئس والله ما منتك نفسك ، فاخرج ، وإلا دخلت عليك فصرمتك مني العقوبة ، لأيم الله لتخرجن ، أو لأهتفن هتفة مشؤومة عليك ، يلتقي فيها الحيان ، عمرو، وحنظلة ، ويصير أمرك الى تباب ، وتجيء سعد بعدد العصي ، ويسيل عليك الرجال ، من هاهنا وهاهنا ، ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني تميم . فلما رأى أنه لا يجيبه أخذه باللين وقال : أخرج يا بني وأنت مستور ، فإني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتني لقد قنعت بقولي ، واطمأنت الي ،

أنا عروة ابن مرثد ، أبو الأعز المرثدي ، وأنا خال القوم ، وجلدة ما بين أعينهم ، لا يعصونني في أمر ، وأنا لك بالذمة كفيل خفير ، أصيرك بين شحمة أذني وعاتقي ، لا تضار . فاخرج . فأنت في ذمتي ، وإلا فعندي خوصرتان . إحداهما إلى ابن أختي البار الوصول ، فخذ إحداهما فانتبذها حلالاً من الله تعالى ورسوله ﷺ .

الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت وثب يربغ المخرج ، فتهافت الأعرابي أي تساقط . ثم قال : يا ألأم الناس وأوضعهم . ألا يأنى لك . أنا منذ الليلة في واد ، وأنت في آخر ، إذا قلت لك السوداء والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تربغ المخرج ؟ والله لتخرجن بالعفو عنك ، أو لأسجن عليك البيت بالعقوبة ، فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحي فقالت : أعرابي مجنون . والله ما رأيت في البيت شيئاً ، ودفعت الباب . فخرج الكلب شداً ، وحاد عنه أبو الأعز مستلقياً ، وقال : الحمد لله الذي مسخك كلباً ، وكفاني منك حرباً . ثم قال : تالله ما رأيت كالليلة ما أراه إلا كلباً ، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه »[22] .

---

(22) الحيوان : الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون جـ2 ص231, 232, 233 ومثله في عيون الأخبار جـ1 ص167, 168 . لابن قتيبة الدينوري



الفصل الثالث

ضعف العقل

سخر الجاحظ من ضعاف العقول الذين يظهرون بمظهر العقلاء والحكماء ، ويذكر الجاحظ المثل على ذلك بقوله : « ومن المجانين الأشراف بن صحيان الأزدي ، وكان يقرأ . قل يأيها الكافرون . فقيل له في ذلك ، فقال : قد عرفت القراءة في ذلك ، ولكني لا أجل أمر الكفار »[1] .

يروي الجاحظ انه « كان بالكوفة امرأة رعناء ، يقال لها مجيبة ، فقصد بهلول فتى كانت مجيبة أرضعته . فقال له بهلول : كيف لا تكون أرعن وقد أرضعتك مجيبة ؟ فوالله لقد كانت تزق لي الفرخ فأرى الرعونة في طيرانه »[2] .

يقول الجاحظ : « ومن مجانين الكوفة بهلول ، وكان يتشيع ، فقال له اسحاق بن الصياح : أكثر الله في الشيعة مثلك . قال : بل أكثر الله في المرجئة مثلي ، وأكثر في الشيعة مثلك »[3] .

---

(1) البيان والتبيين : الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون جـ4 ص20 .
(2) المصدر السابق جـ2 ص231 .
(3) نفس المصدر ص230 .

ومن ألوان السخف العقلي التي حفل بها أدب الجاحظ ، ونالت قسطاً وفيراً من عبثه وسخره ، وعقد لها الأبواب والفصول في كتبه : -

1 ـ الجهل والغفلة :

الجاهل والغافل يسيران ، ضد قوانين الطبيعة لا يعرفان من أمرهما شيئاً ، ولا يفرقان بين الضار والنافع ، وقد يفعل أحدهما الشيء يعتقد أنه خير ، والحق أنه شر صراح ، وقد يلقى الكلمة يرى أنه بها أستاذ الأساتذة فإذا هي برهان سفهه ، وعنوان جهله ، وذلك ما يغري بالتهكم ، ويدفع إلى السخرية إذ « الشخصية تكون مضحكة على قدر ما تجهل نفسها تماماً »[4] .

فأحوالهم تدعو إلى العجب ، وتدفع إلى السخر ، فمنهم من يعتقد أنّ « الفأرة من خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان »[5] .

ومنهم من يروي أن الأسد في سفينة نوح عطس عطسة فرمى من منخريه زوج سنانير ، فلذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلم الفيل زوج خنازير . فلذلك كان الخنزير أشبه شيء بالفيل »[6] .

فسخر الجاحظ من الأول بقوله : « فهل سمعت بحجة قط ، أو بحيلة ، أو بأضحوكة ، أو بكلام ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا

(4) الضحك : هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي ، وعبد الله عبد الدايم ص16 .

(5) الحيوان الجاحظ حـ4 ص298, 299, 300

(6) نفس المصدر

الاعتلال »[7] .

وسخر من الثاني بقوله : « فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها »[8] .

ويقول بعد ذلك : « وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص »[9] .

2 ـ الخرافات :

الخرافات والأباطيل ، وإلقاء الشباك على الفريسة ، واللعب بعقول الناس ، بمثل ما يقوله المشعوذون مصدر من مصادر السخر ، وموضوع جيد من موضوعاته ، ولم يهمل الجاحظ هؤلاء في كتاباته ، فجعلهم مجال سخريته وإضحاكه . فقال : « وقد زعم صاحب المنطق . أنه ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق . فقلت له : من أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال : فأما السعي ، فلا سعي ، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل .وأما الأكل فإنها تتعشى بفم ، وتتغذى بفم . وأما العض : فإنها تعض برأسيها معاً. فإذا به أكذب البرية . وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها، وفي تهويل أمرها »[10] .

---

(7) نفس المصدر ص347 , 348 .
(8) الحيوان للجاحظ حـ4 ص156 .
(9) المصدر السابق ص348 .
(10) الحيوان للجاحظ حـ4 ص348 .

وقال ساخراً من بعض آراء علماء الطب في زمنه : « خبرني ثمامة عن أمير المؤمنين ـ المأمون ـ أنه قال : قال لي بختيوشع بن جبريل ، وسلحويه وابن ماسويه . ان الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ، فلسعني زنبور ، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن ، إلا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج . فلم يبق في يدي منهم إلا أن يقولوا : كان هذا الزنبور حنقاً ، غاضباً ، ولولا هذا العلاج لقتلك .

وكذلك هم إذا سقوا دواء فضر ، أو قطعوا عرقاً فضر ، قالوا : أنت مع هذا العلاك الصواب تجد ما تجد ، فلولا ذلك كنت الساعة في نار جهنم »(11) .

هذا وقد سخر الجاحظ من الأوضاع الاجتماعية، والسياسية ، والثقافية ، والدينية في مجتمعه . وله في كل واحدة منها الكثير والكثير . من التهكم ، والهزء ، والاستنكار .

(11) الحيوان للجاحظ حـ5 ص364 .

□ الباب الثالث

رسالة التربيع والتدوير وصورة ابن عبد الوهاب فيها

تمهيد

من الرسائل التي كتبها أبو عثمان الجاحظ رسالة التربيع والتدوير ، كتبها الى أحمد بن عبد الوهاب يسخر فيها منه ، ويتهكم به ، وهي أول رسالة في اللغة العربية كتبت في هذا الغرض ، واختصت به ، وصورت السخرية تصويراً كاريكاتورياً هازلاً ، تناوله من جميع نواحيه ، تناولاً بارعاً ، وسخر منه سخراً مراً . وهي إحدى الرسائل التي عناها بقوله في كتابه الحيوان : « وعتبني برسائلي وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخلطائي من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقياً ، ومديح لا يزال أثره نامياً ، ومن ملح تضحك ، ومواعظ تبكي »[1] . وقد صب فيها أكثر سخرياته من ابن عبد الوهاب على تكوينه الجسماني ، وعلى عقله وعلمه ، فشوه شكله ، وعبث بتفاصيله ، وأبطل هندسته . فإذا هو كرة ، وإذا هو دكان ، ورحى طحان ، وإذا هو مربع مدور ، قصير عظم الفخذ ، جعد الأطراف ، مجتمع للمتناقضات . كما هزأ بعقله وعلمه ، وسلوكه وفعله ، وقوله ونفجه ، في أسلوب له ظاهر وله باطن ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه

---

(1) الحيوان : الجاحظ حـ1 ص7 . تحقيق عبد السلام هارون

من قبله العذاب . فهو يرفع شأنه ، ويعلي قدره ، ويحلق به في السماء ، وتتلمس هامته السماكين ، ويطفىء نوره النيرين ، وتحترق بعلمه أجرام الأفلاك ، حتى ليقدر على شفاء من كتب له الهلاك ، ولا يقاس به عظيم ، ولا يدانيه عالم أو أديب ، فهو أبو الفنون ، ومبتكر العلوم ، ومراد الجاحظ السخرية ، وقصده الاستهزاء ، عن طريق ذكر الضد ، ثم يرجع به الى حقيقته ، ويضعه في مكانته ، فيحطه من شاهق ، ويهوي به من حالق ، فتحقق السخرية غايتها ، وتصل في الايجاع الى قمتها ، في أسلوب جزل ، وعبارة رصينة ، حوت المعارف ، وامتلأت باللطائف ، تارة يميل بها الى السجع غير المتكلف ، وطوراً يسير بها الى الترسل ، تارة يرسلها عنيفة هادرة ، وأحياناً يقودها سهلة هادئة ، مرة يحدث فيها ازدواجاً ، او مقابلة ، ومرات يترك ذلك ، وهو في كل أحواله ، المصور البارع ، والرسام الماهر ، يتخذ الألوان والأصباغ مادة لصوره ، والتشكيل والنحت ، دليلاً على استهزائه ، فيملك عليك سمعك وبصرك ، ويجلب خيالك ولبك ، فاذا الرسالة وجبة شهية ، وغذاء دسم ، وإذا أنت في مسرح هزلي ، تضحك للنادرة أعجبتك ، وتطرب للفكرة واتتك ، وتسخر بالتشكيل والتصوير ، والمسخ والتشويه ، وإظهار مكنون النفس ، وخفايا القلب ، فتحمد للجاحظ عبقريته ، وتغبطه تفوقه وأسبقيته .

الفصل الأوّل

الشخصية التي سخر منها

إن الشخصية التي سخر منها الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير وسط الأضواء الكاشفة على زواياها المجهولة ، فظهرت واتضحت ، ووضع عليها مجهر سخطه وهزئه ، فنمت وعظمت ، وعبث بدقائقها ، وتفاصيلها ، وتقاسيمها ، فتعرجت وتكورت ، واستطالت ثم تغيضت ، وألهبها بميسم هزئه ، فتشوهت وتقرحت، لا بد أن يكون لها شأنها وخطرها حتى يناصبها العداء ، ويحبس قلمه للحديث عنها فترة من الزمان . وتلخيص معلومات هذه الشخصية من كتابات الجاحظ نفسه ، فهو خير برهان . وأوفى دليل ، يذكر الجاحظ أن صاحب هذه الشخصية هو أحمد بن عبد الوهاب ، وصرح بذلك في مستهل رسالته « كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعي أنه مفرط الطول »(1) . وقد أشار الى هذه الرسالة ، وصرح باسم صاحبها في كتابه الحيوان فقال : « فإن أعجبتك هذه الرسائل ، واستطرفت هذا المذهب ، فاقرأ رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب »(2) .

---

(1) مجموعة رسائل الجاحظ ص85 حـ1 دار النهضة بيروت سنة 1972

(2) الحيوان للجاحظ

وقد تبين أنه من كتاب الأمراء ، لا من كتاب الديوان . فقد قال أبو الفرج الأصفهاني : « وكان لصالح بن عبد الوهاب أخي احمد بن عبد الوهاب كاتب صالح من الرشيد »(3) .

كما أوضح أن القبيلة التي ينسب إليها يمنية قحطانية في قوله : « ولم أزعم أنك رجل يماني ، بولادة لك في قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان »(4) .

ثم صرح باسم قبيلته (بجيلة) في قوله : « والله لئن رميتني ببجيلة لارمينك بكنانة »(5) .

وقد كان مذهبه التشبيه والقول بالبداء والرفض . يقول الجاحظ له : « فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل ، وباطلها ، وما فيها محال ، وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبي ، ولزوم بابي ،وابتدي بنفي التشبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال »(6) . ولا بد أن يكون ابن عبد الوهاب شخصية نابهة لها مكانتها بين الناس ، ووزنها بين الكتاب ، وأهميتها في الدولة . وإلا فكيف يناصب الجاحظ ـ القمة ـ العداء رجلاً من عامة الشعب ، وغوغاء الأمة . ويطيل السخرية من شفاء لغيظ نفسه وقلبه ، وضيق صدره .

وقد كانت للبجيلي مكانته المرموقة في الدولة ، وله أحباؤه الذين

---

(3) نفس المرجع .

(4) مجموعة رسائل الجاحظ جـ1 ص122 .

(5) المصدر السابق ص118 .

(6) نفس المصدر ص130 .

يدافعون عنه ، ويستند إليهم عند اشتداد الكروب ، من وجهاء الدولة ، وأولى الشأن فيها ، كصالح بن علي ، وسليمان بن وهب ، وجعفر الخياط . يقول الجاحظ في الرسالة : « لئن نهضت بصالح بن علي[7] ، لأنهضن بأحمد ابن خلف[8] ، وبإسماعيل بن علي[9] ، ولئن صلت علي بسليمان بن وهب ،[10] لأدفعنك بالحسن بن وهب »[11] .

كما كان من أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات . كما كان يذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني[12] .

وفي ذلك الدليل على أن هناك من كانوا يؤازرونه ، ويعتمد عليهم في الشدائد ممن كانوا ذوي أهمية في الدولة ، وصدارة في المجتمع العباسي .

---

(7) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس قائد من قواد الدولة العباسية ، وأمير من أمرائها ، تتبع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حتى قتله في مصر تولى إدارة الحج سنة 142 هـ .

(8) أحمد بن خلف كان يعاصر الجاحظ ، وكان مشهوراً بالبخل ، وله في كتاب البخلاء أحاديث وكان الجاحظ يقربه ويفخر به .

(9) إسماعيل بن علي هو أخو صالح بن علي وكان من قواد الدولة العباسية تولى ادارة الحج سنة 142 هـ

(10) من كبار رجال الدولة العباسية وكان وزيراً من وزرائها .

(11) كاتب عالم شاعر توفى سنة 247 هـ تقريبا

(12) الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني جـ12 ص31 322جـ1 ط التقدم .



الفصل الثاني

الدافع إلى تأليف الرسالة

1 ـ كان لأحمد بن عبد الوهاب منزلته الرفيعة في المجتمع ، ومكانته السامية بين عظماء الدولة ، ولدى رجال الحل والعقد ، وليس يبعد أن يكون قد احتل المركز المرموق من قلوب الخلفاء والأمراء والوزراء . وذلك شيء يثير الغضب في نفس الجاحظ ، ويبعث على الحنق ، ويورث نار الغيظ ، فقد كان الجاحظ يرى نفسه في غير مكانه ، ولم يوضع حيث ينبغي أن يكون ، وأنه لو أنصف لكان هو الخليفة ، ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمر بأمره ، ويعمل تحت يده ، وسواء أكان ذلك منه على سبيل الفكاهة والمرح ، أم على سبيل الاعتزاز بالنفس . إلا أن المؤكد أن الجاحظ كان طلعة ، ذا آمال عراض ، ومن الصعب على من كان هذا طموحه أن يرى من هو أحط منه رتبة ، وأقل منزلة ، قد نال فوق ما ينبغي له . والجاحظ لا يستطيع قلمه الساخر أن يصمت إزاء هذا المروق ، فشرع سلاحاً بتاراً ، ومبضعاً يستأصل تلك الزيادة ، غير الطبيعية التي نمت في شرف ابن عبد الوهاب . واختار الكاريكاتور يعيد نفسية البجلي الى حالة من التوازن والاعتدال .

2 ـ وكان ابن عبد الوهاب وكان الجاحظ يكره الكثير من أفراد هذه

الطائفة ويعيبها ، ويهزأ بها ، ويراها من التفاهة وقلة الفطنة وضعف الأداء ، ومستوى يزري بتلك المهنة الرفيعة ، لما يتصفون به من الجهل والحمق وسوء التدبير ، وضحالة التفكير . وذلك ما جعله يترك الديوان سريعا ، ولم يطق أن يمكث فيه أكثر من ثلاثة أيام مع أولئك الكتاب الذين وصفهم بقوله : « إن قبح الكتابة بني على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيماً قط تولاها بنفسه أو شارك كاتبه في عمله »(1) .

« وجلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين فتأمل على الكتاب فقال : خلق حلوة ، وشمائل معشوقة ، وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخلاص ، وجدتهم كالزبد يذهب جفاء ، وكتبته يعرفها الهيف من الرياح ، لا يستندون من العلم الى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة »(2) .

فقد امتلأ قلبه بكرههم ، وقد كان لابن عبد الوهاب من تلك الكراهية أوفى نصيب ، عبر عنه الجاحظ برسالة طويلة ساخرة خصه بها ، شفاء لغيظ نفسه ، التي ترى فيه المنظر ولا ترى الخبر ، وتنظر الضيعة الشريفة في أيدي الأخساء .

3 ـ ثم إن الجاحظ كان ساخراً بطبعه ، ميالاً إلى الفكاهة بفطرته ، يطلبها ويلتمسها في شتى مواطنها ، ويولدها ، ويشتق منها الرائق إن

---

(1) ثلاث رسائل للجاحظ نشر يوشع فنكل ص42 .

(2) المرجع السابق ص45 .

لم يجدها أمامه . ويخترعها ويبتدعها إن لم تسعفه ، فسلطها على ابن عبد الوهاب فمسخه وتركه صريع هزئه ، وقتيل تهكمه ، قال في كتابه الحيوان(3) : « والحديث عن مسخ الكلاب والحكأة ، وأن الحمام شيطان من جنس المزاح الذي كنا كتبنا به الى بعض إخواننا ممن يدعي علم كل شيء . فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل . فقلنا له : ما لشنقنان . والصيصان وتنكوير ودركاذاب . ومن قاتل امرأة مقتبل » ويقصد بذلك أحمد بن عبد الوهاب لورود هذه الأسئلة في رسالته .

4 ـ وقد كان ابن عبد الوهاب في هيئته وسحنته ونفسيته وعقليته صورة متناقضة . تدفع الجاحظ بما طبع عليه من حب للمرح والمزح ، وبما وقر في جبلته من لهج بالسخر وبما انفعلت به نفسه من كره له ، وغضب عليه ، إلى أن يتناولها بقلمه ، فيرسم لها الخطوط ، يمطها ويعرجها ، ويثنيها ويدورها ، ويعبث بطولها وعرضها ، ويضفي عليها الظلال ، ويسكب فوقها الألوان ، فإذا هي صورة مشوهة ، ولوحة للقبح مجشمة ، يفصح عن خفاياه ، فتضحك وتقهقه ، وتسر وتسعد .

5 ـ كان الجاحظ قبيح الوجه ، مشوه الخلقة ، إلى الحد الذي جعله يقول : « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني »(4) .

---

(3) ص308 حـ1 .

(4) وفيات الأعيان لابن خلكان حـ3 ص141 . تحقيق محي الدين . مكتبة النهضة .

وربما كان ابن عبد الوهاب جميل الوجه ، وسيماً ، بدليل أن الجاحظ لم يتعرض في رسالته للسخر من وجهه ، فغاظه ما عليه ابن عبد الوهاب من صباحة ، فنسب إليه قبحه ، وأسقط عليه شوهته .

6 - وربما تاه ابن عبد الوهاب بنفسه ، واغترّ بمنصبه ، واعتقد أنه فوق الجاحظ ، وأن يده لن تناله ، فعابه وهزأ به ، وعاداه وهجاه ، مستغلاً في ذلك منصبه ونفوذه ، وصحبته كبار رجال الدولة ، وكثر ذلك منه حتى ضاق به الجاحظ بعد طول اصطباره ، فألف رسالته في السخرية منه ، طويلة بمقدار صبره عليه ، لاذعة بمقدار ما حبس في نفسه ، وتلمظ في قلبه بدليل قوله في الرسالة : « فلما طال اصطبارنا ، حتى بلغ المجهود منا ، نعتاد مذهب ، ونألف سبيله ، رأيت أنه أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادي ، وسكان كل ثغر ، وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة ، أهزأ فيها ، وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غربة ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به »[5] .

وقوله : « فأنت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار والاختيار ، وعلم الأخيار ، أني أشد منك عقلاً ، وأظهر منك حزماً ، وألطف كيداً ، وأكثر علماً ، وأوزن حلماً ، وأخف روحاً ، وأكرم عيناً ، وأقل غشاً ، وأحسن قداً ، وأبعد غوراً ، وأنصع طرفاً ، وأكثر ملحاً ، وأنطق لساناً ، وأحسن بياناً ، وأجهر جهاراً ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تنشد من العلم ، وتنفق من الاختبار ، وتموه نفسك ، وتضر من

---

(5) مجموعة رسائل الجاحظ ص86 .

قدرك . . . ليس عندك الا ذاك ، فمن تزاحم البحار بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ »(6) . وفي ذلك الدليل على أن ابن عبد الوهاب كانت بينه وبين الجاحظ ملاحاة ومنافسة وأنه تاه بنفسه على الجاحظ ، وفخر بفضائله ، وحط من قدر الجاحظ ، ونزل به الى الدرك الأسفل ، مما حدا الجاحظ أن يرد عليه ، ويهزأ به ، ويطيل كلامه ، فكان الرد هذه الرسالة الساخرة .

7 ـ اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات ونشأت بينهما صداقة وطيدة ، ثم حدث بينهما جفوة ، وقد اتصل كذلك ابن عبد الوهاب بابن الزيات ، وتقرب منه ، فقربه اليه ، وربما انتهز ابن عبد الوهاب هذه الجفوة فأطلق لسانه في الجاحظ ليزداد قربه من ابن الزيات . وربما كان السبب في الجفوة لوقيعة منه ، ووشاية به ، وربما تألم الجاحظ لأن ابن عبد الوهاب حل محله ، فثارت نفسه ، وكان ذلك سبباً في إنشاء الرسالة .

8 ـ دان الجاحظ بالاعتزال واتخذه مذهباً كلامياً ، ونبغ فيه وانفرد ببعض مسائل خالف فيها ما عليه عامة المعتزلة ، وأفردته بطريقة اعتزالية خاصة نسبت اليه ، وتبعتها جماعة سميت باسمه ، فصار زعيم الطائفة الجاحظية المعتزلية ، واعتنق أحمد بن عبد الوهاب البجلي الرفض والتشبيه والقول بالبداء ، فخالف مذهب الجاحظ الكلامي ، وعارضه ، والجاحظ رجل الفكر ، والمنطق ، والكلام ، فينصب نفسه مدافعاً عما يراه حقاً ، ويسخر ويهزأ بكل ما يعتقد خطأه

(6) مجموعة رسائل الجاحظ ص118, 119 .

وبطلانه ، ومن ثم هزىء بابن عبد الوهاب ، وعاب مذهبه ، وضآله تفكيره ، وجهله ، ونزقه ، وعمت سخريته ، وانفسح مداها ، فشلت جسمه وخلقه ، وكل شيء فيه .



الفصل الثالث



صورة ابن عبد الوهاب كما انتجتها عبقرية الجاحظ

وتتلخص فيما يأتي :

1 ـ العبث بتفاصيل جسمه .
2 ـ مجاوزته حدود الكمال .
3 ـ مقارنته بالمشاهير
4 ـ التصريح بعيوبه .
5 ـ موازنته بالجاحظ .
6 ـ قلب حقيقته .
7 ـ إفحامه بالأسئلة كما جاء في الرسالة .

1-العبث بتفاصيل جسمه

أ ـ الصورة تخالف ظلها :

يستهل الجاحظ رسالة التربيع والتدوير. يرسُم الصورة الهزلية الضاحكة لجسم ابن عبد الوهاب ، فيمد يده بالتشويه في خطوط عرضه ، وخطوط طوله ، فيطيل خطوط العرض ، ويقوسها ، ويدورها ، ويجعل خاصرته مستفيضة ، وبطنه أمامه ممتدة ، ورأسه كرة هائلة ، فيقول أبو عثمان : « كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط

القصر ، ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً ، وتحسبه لسعة حفرته ، واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعي أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم »[1] .

ب ـ إنقلاب الصورة ظلاً والظل صورة :

يجسم الجاحظ أوهام ابن عبد الوهاب ويستعمل معه أسلوب المغالطة ، يحول به الظل أصلاً ، والأصل ظلاً ، فيغير خطوط الصورة ، ويبدل الألوان ، ويعكس الأوضاع ، فيجعل الظل حقيقة وأصله الذي يعلمه الله ، وينكره الناس ، من طول وجمال ورشاقة ، ويجعل منظره الخارجي الذي يظهر به أمام الناس خللاً له ؛ ورسماً مشوهاً لحقيقته ؛ يبرز فيه قصره وغلظه ، واستدارته ، فيقول الجاحظ : « قياسك الذي إليه تنسب ، ومذهبك الذي إليه تذهب ، أن تقول : وما على إن رآني الناس عريضاً ، وأكون في حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق ، وقد علموا ـ أبقاك الله ـ مع الطول الجياد راكباً ، طويل الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف وعليك لهم إذا اضطجعت

---

(1) مجموعة رسائل الجاحظ ص 85 .

مسائل ؛ ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت ، أنا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ، بل ما يهمك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ؛ وأن ما ذهب منك عرضاً ، قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن اختلفوا في طولك فقد اتفقوا في عرضك ، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت على ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ، ولعمري أن العيون لتخطىء ، وأن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذا كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس »[2] .

فالتهكم زاخر في طياتها ، والسخرية منبثة في زواياها ، والتصوير الهزلي يكمن في تضاعيفها ، وقد ألطف الجاحظ الصنعة ، وأتم الحبكة ، وجاء بالسخرية متقناً لا يكاد يبين إلا بعد فحص وإمعان .

جـ ـ الاحتجاج لفضيلتي العرض والقصر :

ثم يحتج بأنه لو سلم بعرضه لكان ذلك من أسباب كماله ، ولم

---

(2) المصدر السابق ص86 .

يؤد به الى نقصان ، فقد « وجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها على التدوير دون التطويل ، كذلك الورق والتمر ، والحب والثمر ، وقلت والرمح ، وإن طال فإن التدوير عليه أغلب ، لأن التدوير قائم فيه ، موصولاً ومفصولاً ، والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً ، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان . وقلت : ولا يوجد التربيع إلا في المصنوع دون المخلوق وفيما أكره على تركيبه دون ما خلا رسوم طبيعته ، وعلى أن كل مربع ففي جوفه مدور ، فقد بان المدور بفضله ، وشارك المطول في حصته »(3) . ولا شك أن قلب حقيقة الأشياء ، والإلحاح على إثبات ما هو عكس طبيعتها ، وتصوير الاضطراب النفسي ، والقلق الفكري ، في صورة هزلية ضاحكة ، ضرب من الكاريكاتور ، يقول الجاحظ : « ورأيتك تقول : إن كان الفضل في النكاية ، أو في الشدة والصلابة ، فقصار كل شيء ، أشد ضرراً ، وأدنى مدخلاً ، وأظهر قوة وجلداً ؛ كالحجارة أصلبها الحصى ، وكالحيات أقتلها الجرارات ، وكذلك أحرار الطير وبغاتها، وصغار البراغيث وكبارها ، واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان ، كالناظرين والأنثيين وحبة القلب ، وأم الدماغ . وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه ، وامتد شخصه ، أسرع الانهدام الى بدنه ، والانحناء الى ظهره ، وأن القصير لا يتقوس ظهره ، ولا يميل عنقه ، ولا يضطرب شخصه ، ولا يعوج عظمه ، ويسعه كل باب ، ويقطعه كل ثوب ، ولا يخرج رجلاه عن النعش ، ولا تفضلانه عن

(3) نفس المصدر ص49 .

الفراش »[4] .

ويستدل على فضل القصر على الطول بقوله : « إن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا لفضيلة العرض على الطول . وذلك كقول الشعراء ، ووصف العلماء . وقال الشاعر : ـ

كأن بلاد الله وهـي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

ولم يقل ؛ كأن بلاد الله وهي طويلة .

وقال الآخر :

وفي الأرض للمرء العريضة مذهب. . . ولم يقل : الطويلة .

وقال :

ولا تحسداني بارك الله فيكما
على الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

وقال الراجز :

تقطع أرضا ، وتلاقي أرضا إن البلاد غلبتني عرضاً

ولم يقول : لولا .

وقلت : لولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله الجنة بالعرض دون الطول . حيث يقول جلّ ثناؤه : وجنة عرضها السموات والأرض »[5] .

---

(4) المصدر السابق ص91 ، 92.

(5) مجموعة رسائل الجاحظ ص92 .

د ـ تحسين ما قبح فيه : ـ

وقد ينهج نهجاً آخر في رسم الصورة الهزلية ، فلا يتناول العيوب والنقائص بالتضخيم والتفخيم ، ولا يجعلها كما هي عليه من قبح ، ولا يذكر صفاتها العادية ، وأوصافها الجسمية ، بصفاتها الحقيقية ، وإنما يجملها ويحسنها ، ويمدحها ويطريها ، ويعتبرها محاسن ومفاتن تحقق لصاحبها الجمال ، وتبرز الفتنة ، فيرسم لها الصورة المثالية الفائقة الحسن ، ولكنها تكون كاريكاتورية عن طريق التضاد ، وقلب الحقائق مما غرضه المدح ، وإنما الهدف التشكيك والبلبلة ، وإعطاء السامع صورة رائعة الحسن لما لا حسن فيه . فيقول الجاحظ : «قد علمت ـ حفظك الله ـ أنك لا تحسده على شيء حسدك عى حسن القامة ، وضخامة الهامة ، وحور العين ، وجودة القد »[6] . « فأما حور العين فقد انفردت بحسنه ، وذهبت ببهجته وملحه ، إلا ما أبانك الله به من الشكلة ، فإنها لا تكون في اللئام ، ولا تفارق الكرام . وقال الشاعر :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها   كذاك عتاق الطير شكل عيونها

وقال آخر :

وشكلة عين لو حبيت ببعضها
لكنت مكان النجم مرأى ومسمعا

فأما سواد الناظر ، وحسن المحاضر ، وهدف الأشفار ، ورقة حواشي الأجفان فعلى أصل عنصرك ، وجاري أعراقك »[7] . « ولو

---

(6) المصدر السابق ص87

(7) نفس المصدر ص94 .

لم يكن لك إلا أنا نستطيع أن نقول لك في الجملة وعند الوصف والمدحة : هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبهى من الغيث ، ولهو أحسن من يوم الحلبة ، وأنا لا نستطيع أن نقول في التفاريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسان حية ، وكأن عينه ماوية ، وكأن بطنه قبطية ، وكأن ساقيه بردية وكأن لسانه ورقة ، وكأن أنفه حد سيف ، وكأن حاجبيه خط قلم ، وكأن لونه الذهب . وكأن عوارضه المبرد . وكأن فاه خاتم ، وكأن جبينه قلال »(8) .

« وهل حملت النساء أجمل منك ، ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً ، وحلواً مليحاً ، وعتيقاً رشيقاً ، وفخماً نبيلاً ، ثم لا يكون موزون الأعضاء ، ولا مقدود الأجزاء وقد يكون أيضاً : الأقدار متساوية وغير متقاربة ولا متفاوتة ، ويكون قصداً ، ومقداراً عدلاً ، وإن كانت دقائق خفية لا يراها إلا الألمعي ، ولطائفه غامضة لا يعرفها إلا الذكي ، فأما الوزن المحقق ، والتعديل المصحح ، والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ، ولا يحصره التعنت ، ولا يتعلل حاوية ، ولا يطح في التمويه ناعته ، فهو الذي خصصت به دون الأنام ودام لك على الأيام »(9) .

2 ـ مجاوزته حدود الكمال :

أ ـ رفعه فوق قدره :

ويتابع الجاحظ تصويره فيخط فيه خطأً من خطوط الجمال والكمال

(8) المصدر السابق ص111, 112

(9) مجموعة رسائل الجاحظ ص111

في الصورة الكلية الشاملة ، يرفع به ابن عبد الوهاب فوق قدره ، ويمنحه أكثر من طاقته ، وما تتحمله أخلاقه وخلقته ، وإذا هذه الرفعة عبءعليه ، وحمل ثقيل يئن تحته ، وإذا جسده يختفي ، وقد غطاه هذاالجمال المعار ، ونفسه ، وقد علاها الكمال الطارف لا تكاد تبين ، وهمته وجبلته لا تستطيعان أن تنهضا بمتطلبات هذا الكمال . وإذا خط الرفعة والكمال خط نقص واتضاع ، يفصح عن العيوب ، ويدل على المخازي ويشير بأصبعه الى نفس واهية ، وعزيمة خائرة ، وقسمات شوهاء متنافرة ، تكدست عليها مساحيق الجمال ، فتصببت من تحتها عرقاً يسيل مع هذا الخليط من المساحيق ، في خطوط تحمل ألوان الطيف ، وعوامل التشويه والقبح ، رغم أنها للتجميل حيث وضعت في غير موضعها ، وبكميات وافرة .

وهذا ما أراده الجاحظ الرسام للصورة حين مد خطه « فسبحان من جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبت من عياننا ، وعفوك أرجح من جهدنا ، وبداهتك أجود من تفكيرنا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيبتك أهيب من حضور السادة ، وعتبك أشد من عقاب الظلمة »(10) .

« إن تَفَتَّيْتَ فالرشاقة والملح ، وإنْ تَنَسَّكْتَ فالرهبانية والإخلاص ، وإنْ تَرَزَّنْتَ فشهلان ذو الهضبات ما يتململ »(11) .

---

(10) المصدر السابق ص109 .

(11) نفس المصدر ص115 .

ب ـ تفوقه على المخلوقات :

يرفع الجاحظ ابن عبد الوهاب إلى مرتبة لم تخلق إلا له ، لا يشركه فيها القمر ليلة تمه ، ولا يدانيه المقربون الأخيار ، ولا الملائكة الأبرار ، فالحسن قبح إذا قيس بحسنه ، والقبح حسن اذا كان فيه .

ويمضي الجاحظ في رسم هذه الخطوط حتى يصل به الى المحال ، ويصيرها من الوهم ، وإذا الصفات كلها منهارة ، والبناء منقوض ، انهدم من طول ما ارتفع ، وسقط لكثرة ما أضيف اليه ، فما احتمل . يقول الجاحظ ، بل يرسم الجاحظ : « وأنا أبقاك الله أعشق إنصافك ، كما أتعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم التفقه في الدين ، ولربما ظننت أن جورك انصاف قوم آخرين ، وأن تعقدك سماع رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ، ومقابلة الاختيار بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالحلم ، إلا الذي خصصت به من إيثار الحق ، وألهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أحرج ما تكون إلا الإنكار ، أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيلة فقراً ، أشد ما تكون للحجة طلباً »(12) .

« وهل في تمامك ريب ، حتى تعالج بالحجة ، وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة ؟ وهل لك خصم في العلم ، أو ند في الفهم ، أو مجار في الحكم ، أو ضد في الفهم ، وهل يتبلغك الحسد ، أو يضرك العين وتسمو إليك المنى ، أو يطمع فيك طامع ، أو يتعاطى

---

(12) المصدر السابق ص92 .

شأوك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونـك ، أو يخشـع عالـم أن يأخـذ عنـك ؟ وهـل غاية الجميل إلا وصفـك ؟ وهـل زين البليغ الا مدحـك ؟ وهـل يأمـل الشريف إلا اصطناعك ؟ وهل يقدر الملهوف إلا غياثـك ؟ وهـل للطـول عرض سواك »[13] .

وصفه وصفاً كاريكاتورياً فيقول : « وقـد علمنـا أن القمـر هو الذي يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ومعوشخناً ، وأنت أبداً قمر بدر فخم غمر ، ثم مع ذلك يحترق في السرار ويتشاءم به في المحاق ، ويكون نحساً ، كما يكون سعـداً ، ويكون نفعاً كما يكون ضراً ، ويقـرض الكتـان ، ويشعب الألوان ، ويحسم فيه اللحم ، وأنت دائم الحسـن ، ظاهـر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكون من أشحمه ، وعلى أنه قد محق حسنه المحق ، وشانه الكلف ، وليس بذي توقد واشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا متـلألىء ، ويعلـوه برد ويكسوه ظل الأرض ، ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصفار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، ناري التوقد ، هوائي الذهن درّي اللون ، روحاني البـدن . وإن احتجـوا عليك بالجـزر والمد ، احتججـت عليهـم بالعلـم والحلـم ، وبـأن طاعتـك اختيار واعتبار ، وطاعته طباع واضطرار ، وبأن له سـيرة قد قصر عليهـا ،

(13) نفس المصدر ص110 .

ومنازل لا يجاوزها لا تمكنه البدوات ، وليس في قواه فضل للتصرف ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس ، وضياؤك عارية عند جميع الخلق ، فكم بين المعير والمستعير . والمتبين والمتحير ، وبين العالم ومن لا حس فيه »(14) .

وإذا كان النموذج السابق قد شبه ابن عبد الوهاب بشيء واحد حول القمر ، وأخذ يحوره ويقلبه ، ويتناوله من جميع زواياه ، ومن شتى اتجاهاته ، وفي مختلف أحواله ، حتى استقصى عنه جميع أوجه الشبه واستخلص ما فيه من محاسن ، ثم أوضح الفرق بين طرفي التشبيه ، وبالغ حتى قلب الحقيقة ، وقلب التشبيه ، وجعل الفرع أصلاً ، والأصل فرعاً ، بل جعل المشبه في القمة ، حسن صورة ، وبهاء طلعة ، وأعطاه من الامتيازات ما لا يوجد في المشبه به . فإنه هنا لا يكتفي بمنظر واحد ، ويشبه به مفرداً . لأنه لا يراه كافياً في وصف المشبه وإبراز جماله ووصفه وسحره ، فعدد المشبه به ثم التقط لأحمد من صفات الجمال وأبرز ما في كل مشبه به . والقصد من ذلك التفكه والهزل . لأن الجاحظ لا يقصد المدح وإنما يريد التشويه والهزل كما يتبين من سائر الرسالة ، ومن اسلوبه في قوله : « وطباعك ـ جعلت فداك ـ طباع الخير ، إلا أنك جلال كلك ، وجوهرك جوهر الذهب ، إلا أنك روح كما أنت . وقد حويت خصال الياقوت ، إلا ما زاد الله عليه ، وأخذت خصال المشترى إلا ما فضلك الله به ، وجمعت خلال الدر إلا ما خصصت به دونه ، فلك من كل شيء صفوته ولبابه ،

(14) مجموعة رسائل الجاحظ ص 114, 115 .

وشرفه وبهاؤه »[15] .

جـ ـ معرفة كل شيء :

ومن خط الرفعة والكمال ، والتفوق على الكائنات ، يتفرع خط المعرفة التي جاوزت الحدود ، وخبرت الأولين والآخرين . فنجد ابن عبد الوهاب قد جازها متفرقة ومجتمعة ، ونالها قديمة وحديثة ، وبرع في كل لون ، وأتقن كل حزب ، وكان بها أستاذ الأساتذة ، ومعلم الأفذاذ ، والمسؤول عن العلوم والفنون ، والقيم عليها ، في كل عصر وجيل ، والجامع لها مهما شردت ، والحائز عليها وإن دقت .

وبمجاوزة هذا الخط مداه ، يحدث التشويه في الصورة . لأنه ان كان لا يتلاءم مع باقي الخطوط، ولا يتناسب مع أطوالها ، فإن المنظر يكون سيء التركيب ، كمن يرسم صورة شخص ، ويجعل أنفه في حجم جسمه . والجاحظ وضع صورة ابن عبد الوهاب ذلك الوضع المشوه الهزلي بشقيه . فجعل خط المعرفة في بعض المواضع يناسب سائر خطوط الصورة في الطول والاتساع ، ولكنه لا يتفق مع الأصل . كما جعله أطول من سائر الخطوط في مواضع أخرى . فبدت الصورة في كلا الموضعين كاريكاتورية هزلية ، تضحك المشاهد سروراً وانشراحاً ، وتسري عنه ، ويبكي صاحب الصورة غماً وكمداً حتى تعمى عينيه . يقول الجاحظ : « وقد تعجب ناس من إطالتي ، ومن كثرة مسألتي ، وتعجبي من تعجبهم أشد والذي كان من أفكارهم

---

(15) نفس المصدر ص115 .

أعظم ، ولو رغبوا في العلم رغبتي ، ورأوا فيه مثل رأيي ، وكانوا قرأوا كتابي اليك في شبيبتي ، وأيام شباب رغبتي ، لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ، ولا استقصروا منه ما استطالوا . فان أذنت لي أظهرته ، وإن تجد على أعلنته وسنقول ما دعاك إلى التنويه بذكرى ، وتعريف الناس مكاني ، وقد تعرف حشمتي وانقباضي ، وتفردي واستيحاشي ، ولولا أنك ـ جعلت فداك ـ مسؤول في كل زمان ، والغاية في كل دهر ، لما تفردتك بهذا الكتاب ، وأنا أطعت نفسي في الجواب . ولكنك قد كتبت أذنة في مثلها لهرمس ، ثم لأفلاطون ، ثم لأرسطاطاليس . ثم أجبت معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وعمرو بن عبيد ، وواصل ابن عطاء ، وابراهيم بن سيار ، وعلي بن خالد الأمواري . فتربية كفك ، والناشيء تحت جناحك ، أحق بذلك وأولى .

وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص ، وبه أعنى »[16] .

د ـ خروج جماله عن المقاييس :

وهنا يضيف الجاحظ إلى صورة ابن عبد الوهاب أصباغاً جديدة ، وألواناً فريدة ، يجعله بها عجباً غريباً ، لأنه لا مثيل لجماله ، بل إن حسنه تخطى القواعد ، ونأى عن المقاييس ، وحارت فيه الأفكار ، فلا يدرك الناظر سره ، ولا يعرف أين مأتاه ؛ « وما تدري في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك ، أو إذا أجمعناك ، وإذا تذكرنا كلك ، وإذا تأملنا بعضك ، فأما كفك فهي

(16) المصدر السابق ص126 .

التي لم تخلق إلا للتقبيل والترفيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويختال بحسنها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندري الكأس في يدك أحسن أم القلم ؟ أم الرمح الذي تجمله أم المخصرة ، ؟ أم العنان الذي تمسكه أم السوط الذي تعلقه ؟ . وكما أصبحنا وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك أحسن . وأيهما ، أجمل ؟ اللمة أم مخط اللحية ؟ أم الاكليل أم العصابة ؟ أم التاج أم العمامة ؟ أم القناع أم القلنسوة ؟

أما قدمك فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيد الأقصى ، كما يعلم القريب الأدنى . أنها لم تخلق الا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم .

وأما فوك فهو الذي لا تدري أي الذي تتفوه به أحسن ، وأي الذي يبدو منه أجمل ، الحديث أم الشعر أم الاحتجاج ، أم الأمر والنهي أم التعليم والوصف .

وعلى أننا ما ندري أي ألسنتك أبلغ ، وأي بيانك أشفى أقلعك أم خطُّك ، أم لفظك أم إشارتك أم عقدك .

وهل البيان إلا لفظ ، أو خط ، أو إشارة ، أو عقد . ! وأنت في ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحدهم وأعيذك بالله . وانت تجوز الغاية ، وتفوق النهاية »(17) .

وقد أصبح ابن عبد الوهاب حديث الإماء ، والنساء ، والعلماء

---

(17) مجموعة رسائل الجاحظ ص114 .

والأدباء . فيقول : « وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهي تفتر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لسرك ، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد شقى بك .

فكم من كبد حرى منضجة ، وكم حشا خافق ، وقلب هائم ، وكم عين ساهرة . وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم غيرى موهلة ، وفتاة معذبة ، قد أقرع قلبها الحزن ، وأجهد عينها الكد ، قد استبدلت بالحلى العطلة ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المرء ، فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائمة مجهوده ، بعد طرف ناصح ، وسن ضاحك ، ونفج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج ، وليس حسنك - أبقاك الله - الذي تبقى معه قوية ، أو تصح معه عقيدة ، أو يدوم معه عهد ، أو يثبت معه عزم ، أو يهمل صاحبه التثبت ، أو يتسع للتخير ، أو يهذبه خوف ، هو - أعزك الله - شيء ينقض العادة ، ويفسح المنة ، ويعجل عن الروية ، ويطرح بالعرى ، وتنسى معه العواقب ، ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك اعظم مما صنع بنصر بن الحجاج ، ولركبك بأعظم مما ركب به جعدة السلمي بل لدعاه الشغل بك الى ترك التشاغل بها ، والغيظ عليك الى الرحمة لهما ، فمن كان عيب حسنه الإفراط والطعن عليه من جهة الزيادة ، كيف يروقه عاقل ، أو ينتقصه عالم .

فلا تعجب أن كنت نهاية الهمة ، وغاية الأمنية »(18) .

---

(18) المصدر السابق ص113 .

هـ ـ حياته سبقت آدم :

ومن الكاريكاتور في الرسالة المبالغة والغلو في طول عمر ابن عبد الوهاب ، ومد حبل حياته الى غير غاية ، حتى لاتعرف بدايته ، وجعل مولده من الخفي الغامض ، الذي لا يستطيع أحد أن يقف عليه ، لانطوائه في مجاهل الزمن ، وتتابع الحقب عليه، مع زعم احمد أنه معتدل الشباب ، حديث الميلاد ، وذلك يسلمنا الى التناقض الواضح بين حقيقته التي يراها الجاحظ وبين ما يزعمه أحمد . والتناقض والاختلاف الجوهري بين الأصل والصورة بكثرة الخطوط التي يحدثها المصور في تقاسيم الوجه وبتعريجها ، وبانحناء خط الظهر وتقويسه ، وبتغيير الأصباغ بتحويل لون الشعر إلى الأبيض الناصع ، بعد أن كان أسود فاحماً ، ضرب من التصوير الهزلي ، ولون من الكاريكاتور .

كما أن بين الأصل والصورة تناقضا أعظم ، وتضارباً أعم وأشمل ، يصل إلى العبث بالعقول ، والهزء والاستخفاف بصاحب الصورة بتصويره في شكل غريب ، ووضع مستحيل ، يجعله أقدم من أبيه ، ومن رأس قبيلته بجيله ، بل أقدم وأسن من جده الأعظم قحطان .

وهذا القدم يجعله يستقل أعمار المعمرين ، ويعتبرهم أطفالاً إذا قيسوا به . فنوح في قياسه لم يعش طويلاً ، يمكن للمصور أن يعتبر امتداد عمر ابن عبد الوهاب بطول اللحية وبياض شعرها ، وانحناء الظهر ، وكلال البصر ، ووهن الجسم وتخاذله ، ولكنه مهما بالغ

وامتلك الريشة الذهبية والموهبة الابتكارية ، فإنه لا يمكنه أن يجعل هذا العمر الممتد شباباً . ولا يستطيع أن يجعله أقدم من أبيه ومن قبيلته ومن نوح وآدم .

وهل يمكنه اداء ذلك في صورة كاريكاتورية . أو غير كاريكاتورية ؟ ولكن براعة الجاحظ السخرية ، وبراعته التعبيرية ، ومقدرته الفنية أتاحت له ذلك ، وأباحت له حرية استخدام الألوان والخطوط ، فاستطاع ان يجلس ابن عبد الوهاب تجاه أفلاطون وأرسطاطاليس يناظرهما ؛ ويصاحب نوحاً في سفينته ، ويعرف الأنس منذ خلقوا ، ويشاهد الجن قبل أن يحجبوا ، وكأنه ليس إنسياً ولا جنياً ، لأنه أقدم من خلقهم « ولم أزعم أنك رجل يمان ، لولادة لك في قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان ومعد بن عدنان ، ومن القرون التي خبر الله عن كثرتها ، وعن آبائها وأجدادها ، ولكنك منهم بالهوى والنصرة ، ولأنهم كانوا لك أحشاماً وصنيعه »[19] .

« فخبرني مذ جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من أفلاطون ، وما دار في ذلك بينك وبين أرسطاطاليس ، وأي نوع اعتقدت ، وأي شيء اخترت ، فقد أبت نفسي غيرك ، وأبت أن تتشفى إلا بخبرك »[20] .

« إنك لا تعد عمر نوح عمرا ، ولا النجوم يوماً ، وإنك قد فت التاريخات ، واستقللت الأحقاب ، وخرجت من خطوط الهند لما

---

(19) مجموعة رسائل الجاحظ ص 122 .

(20) نفس المصدر ص 106

استطالت بأعمارها ، ولا فرحت بطول أيامها »(21) .

« قد شاهدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة ، وأغفالاً وموسومة ، وسالمة مدخوله »(22) .

3 ـ مقارنته بالمشاهير :

ويقترن الجاحظ ابن عبد الوهاب في الصورة الهزلية المترامية الأطراف التي رسمها في رسالة التربيع والتدوير بمشهوري الرجال ، ويجعله نداً لهم ، بل يرفعه ليتفوق عليهم ويبذهم فيما شهروا به حلماً وعلماً وحكماً ورزانة وفروسية ، وارتقاؤه عليهم مجتمعين ، وتفوقه على كل منهم في أبرز ما عرف بإجادته له ، مع ما أثر عن ابن عبد الوهاب من غرور وادعاء ، وما روى عنه من جهل وعى ، يدل على ان الصورة لم يرد بها المصور تعظيم صاحبها وتبجيله ، وإنما أراد تشويهه واللهو به ، وتجسيم عيوبه وأخطائه ، وإبراز مقارنة بالمحايد ، في منظر ساخر مقلوب ، وهذا شبيه بكاريكاتور مصور بالفرشاة لشخص يقف على رأسه ففيه مع الطرافة والتنكيس قلب الحقائق ، ورؤية الأشياء معكوسة الوضع . فالأعالي أسافل ، والمجد والرفعة ضعة وانحطاط ، وما درى ابن عبد الوهاب في الكاريكاتور اللفظي له . والشخص الذي يقف على رأسه ويمثله في الكاريكاتور المرسوم أن العالم معتدل ،

---

(21) المصدر نفسه ص96 .

(22) المصدر السابق ص102 .

وأن الانقلاب إنما هو في وضع كل منهما وفق هيئته .

ومن هذه الغفلة والتنكيس ، ورؤية الأشياء مقلوبة والحكم عليها بعكس ما تستحقه ، يستمد السخر قوته ، ويبلغ التصوير الهزلي ذروته ، وما ذاك على الجاحظ بعزيز حين يمسك قلمه ليقول : « وأشهد بعد أنك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ، ثم تظارفه وتطاوله وتغني مع مخارق، وتنكر فضل زرزر ، وتستجهل النظام ، وتستبرد الأصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم تخرج من حد القبلة الى حد المراء ، ومن حق الأحياء الى حدود الموتى »[23] .

4 ـ التصريح بعيوبه :

قد يصرح بعيوبه ، ويجأر بشينه ، وذلك نادر في الرسالة ، وأندر منه أن تكون العيوب المصرح بها جسمية ، أمَّا الغالبية العظمى لسخره في الرسالة فإنها تتصل بالناحية العقلية أو النفسية أو السلوكية حين يرى شذوذها والتواءها وهو لا يبلغ في ذلك حد التصريح غالباً ، إذ هو رجل الفكر الدقيق ، والنفس المرحة المنبسطة ، والأدب الراقي ، ومن كان كذلك ، قل تصريحه بالعيوب ، وإبداء المخازي ، وكشف العورات ، وإن كان قصده الإصلاح ، لأن كشف العيوب وذكرها دون مواربة أو تستر ، وبخاصة إذا كانت جسمية من صفات الغمر الذي لم يتمرس بالأدب ، أو اللفظ الذي لا يحفل بالناس ، أو

(23) المصدر السابق ص95 .

الوقاح غير السوقة والرعاع ، أو الجاهل بوسائل الاصلاح والتقويم .

ولـم يكن الجاحـظ واحـداً من هؤلاء . لذلك اتخـذ الأسلـوب اللين ، والعبارة المغلفة ، طريقاً للسخر ، وصبغها بالتصوير الهازل ، يرى أنها أكثر ايجاعـاً ، وأعـون على تحقيق الغرض وأرفـق بمـن يود إصلاحهم ، وتقويمهم ، وألين بمخاطبة العلماء والأدباء وعلية القوم . فابتعد ما أمكنه عن السب الصريح والمهاترات ، والهجاء المفحش ، واتخذ السخر والتصوير الهزلي طريقاً لإبداء العيوب وعلاجها .

ومن عيوب ابن عبد الوهاب التي صورها الجاحظ كاريكاتـوريا فأبدع وأوجع .

أ ـ ادعاؤه ما ليس فيه :

ولهذا العيب أهمية في تشويه الصورة ، وتلطيخ معالمها ، وتجللها بالسواد ، حتى بدت كما هي عليه من وجهتين :

أولاً : لأنه داء عياء ، ومرض وبيل ، وأقبح صفـة تنسـب الى العلماء والمفكرين الذين يعتمدون على التحقيق والتجربة والواقـع ، بل إنهم دائماً ينقصون نفوسهم عظمتها ، ويهضمونها حقها من السمو والرفعة ، فهم أرفع من أن يتصفوا بالنفخ والادعاء .

وقد كان الجاحظ عالماً ومفكراً وفيلسوفاً ـ فكان هذا العيب أشد ما يغيظه ممن يتصفـون به . فما بالك إن كانـوا لا يتعلقـون من العلـم بسبب ؟!

ثانياً : لأنه يمنح الصورة لوناً من المسخ ، ونوعاً من الشـذوذ ،

وكثيراً من التنافر ، بين الحقيقة والادعاء ، كما حدث التنافر في الصورة الكاركاتورية بين عضو وعضو أو بين الصورة برمتها ، ومن نقلت عنه ، فيؤدي بها التشويه والمسخ والسخر منها .

ولقد اتخذ الجاحظ من هذا الخط الأسود في نفسية ابن عبد الوهاب منطلقا لرسم الصورة الهزلية له ، مقارنة بالحقيقة ، لتبين الفوارق فيتضاعف الهزل والهزء . فقال : « فكان ابن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة حفرته ، واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعي أنه طويل ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعي أنه معتدل الشباب ، حديث الميلاد ، وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها ، على قدر غباوته عنها .

وكان كثير الاعتراض لها بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفاً بالمجاذبة متتابعاً في العنونة ، مؤثراً للمغالية ، مع إخلال الحجة ، والجهل بموضع الشبه ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف والمحاكمة ، مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب ، ونكد الخلاف ، وما في الخوض من اللغو الداعي الى السهو ، وما في المعاندة من الإثم الداعي الى النار ، وما في المجاذبة من النكد ، وما في التغالب

من فقدان الصواب ؛ وكان قليل السماع غمراً ، وصحفياً غفلاً ، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحق ، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويجيز العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب ، إلا الانتحال لاسم الأدب »[24] .

وهذا يؤيد ما قلناه آنفاً من أن تصريح الجاحظ بالعيوب نادر والأندر منه أن يتناول العيوب الجسمية . لأنه هنا ما تناول العيوب الجسمية إلا ليصل منها إلى أحد عيوبه النفسية وهو الادعاء والكذب عن طريق ذكر الواقع ، ثم ذكر النفج والافتراء .

ب ـ جهله البديهيات :

ويضيف الجاحظ إلى الصورة الأدبية الشاملة خط الجهل لتكتمل معالمها ، وتظهر من جميع نواحيها ، ويتم التشويه والمسخ فيها فتبذ صورته الصور ، ويعجز المفننون عن اللحاق به ، وهل في مقدرة المصور أو الرسام أو المثال أن يمد في الصورة خيط جهل ؟!

وذلك عند أبي عثمان أوثق خط بالتشويه لأنه من الأدباء العلماء والمفكرين ، الذين يجلون العقل ، ويقدسونه ويحتقرون الجهل ويمقتونه ، ويرونه أقبح القبائح ، وأبشع الصفات ، وأس كل داء .

فلما أراد أن يكسو صورة ابن عبد الوهاب البشاعة والشناعة ،

---

(24) مجموعة رسائل الجاحظ ص85, 86 .

اتخذ الجهل رداء . ومدّ خطوطه ، وحاك خيوطه ، ونسج منه قلنسوة توجه بها . بعد أن أجلسه على عرش الادعاء الواهي ، فكشف خلا من كل فكر سديد ، ومنطق رشيد ، وخبر مفيد ، وعرضه للتردي في هوة ساحقة تمحق ما بقي من إنسانيته، وأرانا ظلمة عقله الحالكة ، وجهله النضيد ، والجهل تشويه للعقل ، وتحقير للمرء ، وسلب لأهم ما به الانسان إنساناً، وإبراز له في صورة آدميته وحقيقة غير آدميته، تخدع الناظرين في اللمحة العابرة ، حتى إذا تأملوا باطنها ، وكشفوا أغوارها ، برزت لهم الخدعة وفهموا مغزى الكاريكاتور فسخروا ، واستدلت الهشاشة على وجوههم ، وغمرت البشاشة قلوبهم يقول الجاحظ : « كان قليل السماع غمراً ، وصحفياً غفلاً ، لا ينطق عن فكر وثيق ، بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحق ، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحبذ العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب »[25] .

« وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استبطانا ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عياناً ، وأنت لا ترضى بمجد العيان حتى تدعو إليه ، وترضى بالدعاء إليه حتى تعادي فيه ، ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ، ولا ترضى بالرئاسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون التالد ، ولا بالتالد دون الأعراق التي تسرى والمواليد التي تنمى »[26] .

---

(25) المصدر السابق ص85, 86 .

(26) نفس المصدر ص119

جـ ـ عدم قابليته التعلم :

وإذا كان ابن عبد الوهاب في الصورة متشحاً الجهل ، منكراً المحسوس . فاننا نراه في زاوية اخرى من زوايا الصورة ، مغلق العقل ، محجوب الفكر غير قابل للتعلم . كل شيء بالنسبة له غامض مستغلق ، لا يدرك حقيقته ، ولا يفهم معناه إلا بعد الجهد الجهيد ، والزمن المديد . فقد أبت عليه جبلته وطبيعته ، أن يكون للمعرفة مدخل الى ذهنه ، فقد خلقت عقله بيضاء ناصعة ، تعكس أشعة المعرفة الساقطة عليها . وتروها دون أن تؤثر فيها ، أو تترك عليها بصماتها ، ولو أن عقل ابن عبد الوهاب ، أعيد صهره وتشكيله لما قبل بطبعه والصهر والتشكيل ، بل لما لان ، ولا أثرت فيه حرارة ، يقول الجاحظ : « وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، فمنعني من ذكره غموضه عليك واستتاره عنك ، وعلمت أني لا أقدر أن أصور لك دون دهر طويل ، وألا أضحك معناه دون ترتيب كثير »[27] .

ويقول له : « وأنت ـ جعلت فداك ـ لا تعرف هذا والا أدخلتك الكير ، ونفخت عليك الى يوم ينفخ في الصور »[28] .

د ـ التواء طباعه :

وكما فعلت الصورة الكاريكاتورية المسخ والتشويه في جسم ابن

---

(27) المصدر المذكور ص89

(28) نفس المصدر والصفحة .

عبد الوهاب ، فجعلته قصيراً مربعاً مدوراً . فقد فعلت ذلك بنفسيته وعقليته وطباعه . فجعلته ملتوياً معقداً . مما جعل الجاحظ الطبيب يلتقط الصورة بالأشعة الملونة ، تبرز خفاياه ، وتبدي تشويهاته بل تضيف الى تشويهه تشويها ، فلا نرى من الصورة إلا الهيكل العظمي ، والأورام والكسور والالتواءات ، ثم يضعه على مائدة التشريح ، يخرج أحشاءه ، ويفحص جراثيمه ، تحت مجهر هزئه ، فتعظم وتتضاعف ويكوي بميسمه موطن الداء ، ويزيل بمبضعه فاسد الأحشاء ، لعل الدواء ينجح ، والكسور تجبر ، والأورام تزول .

ولكن نفس ابن عبد الوهاب قد خبثت ، والأورام فيه قد انتشرت ، وعمل الجاحظ حين ذاك ، لا يفيد إلا في تنبيه الناس ، وبث الوقاية بينهم ، وإظهار الالتواءات والتشويهات في طباع ابن عبد الوهاب وسلوكه الفظة ، والأدكار بما آلت اليه حاله ، للمرح والسرور لأن طباعهم سلمت ، وعقولهم صحت ، ونفوسهم اعتدلت .

ولنستمع الى الجاحظ الطبيب يخاطب مريضه مبينا نتيجة التحليل ، وفحص الأشعة : « وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة ، وترى أن مباينة المنصفين في تعظيم العنود سعادة ، وأن الرئاسة في دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار بما يظهر للعيون ضعة ، وأن الشهرة بالمبالغة رفعة ، أظهر القوم عندك حجة ، أرفعهم صوتاً ، وأخلقهم للتشويه أصلبهم وجهاً . وأحسنهم تقية أفلحهم تحرجاً ، وأكثرهم عندك إنصافاً أشدهم شغباً ، تسعف المقهور ، وتكلف بالجموح ، وتصافي الوقاح . والأديب عندك من يعيب أحاديث

الجلساء ، واعترض على نوادر الأخوان ، وغمز في قفا النديم ، ونصب للعالم ، وأبغض العاقل ، واستثقل الظريف ، وحسد على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة »[29] .

5 ـ موازنته بالجاحظ :

وإمعاناً في كشف شوهة ابن عبد الوهاب ، وتضخيم عيوبه ، ووضعه ، أمام مشاهديه ، في صورة ضاحكة ساخرة جعل صورته تقابل صورة الجاحظ في وضع لا تتم فيه المقارنة ، ولا تصح الموازنة . لما بينهما من تناقض في حل الصفات ، وتتولد السخرية في اللوحة من هذا البعد الشاسع ، ومن أن الموازنة بينهما كالموازنة بين الضدين ، وكالجمع بين النقيضين ، وليس مراد الجاحظ بالموازنة ، تباين أوجه الاتفاق ونواحي الاختلاف . لأنه لا اتفاق ، وإنما المراد السخرية ، ورسم الصورة الهزلية المضحكة ، لمشوه ممسوخ ، يوضع بإزاء كامل جميل في لوحة واحدة ، وهذا الأقتران وحده كفيل بالتشويه والإضحاك . يقول الجاحظ حين يعرض الصورتين من الناحية الجسمية : « فأما الباد والقامة ، فمن يعدل بين القناة والكرة ، ومن يمثل بين النخلة والدكان ، وبين رحى الطحان، وسيف يمان ، وإنما يكون التمثيل ، بين أتم الخيرين ، وأنقص الشرين ، وبين المتقاربين ، وبين المتباعدين ، فأما الخل والعسل ، والحصاة والجبل ، والسم والغذاء ، والفقر والغنى ، فهذا ما لا يخطىء فيه الذهن ولا

---

(29) المصدر السابق ص119

يكذب فيه الحس »[30] .

وحين يعرضها من الناحية الفكرية ، والصفات الخلقية « وقد سألتك وإن كنت أعلم لا تحسن من هذا قليلا ، ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها خرافة ، وما فيها محال ، وما فيها صحيح ، وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبي ، ولزوم بابي ، وابتد بنفس التشبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال . وأن أتنكر منعك بعد التمكين والبذل ، وبعد التقريح والشحذ ، فلا يبعد الله إلا من ظلم »[31] .

« فأنت ـ يا أخي ـ تعلم علم الاضطرار ، وعلم الاختيار ، وعلم الأخبار ، أني أشد منك عقلاً ، وأظهر منك حزماً ، وألطف كيداً ، وأكثر علماً ، وأزيد حلماً ، وأخف روحاً ، وأكرم عيناً ، وأقل غشاً ، وأحسن قدراً ، وأبعد غوراً ، وأنصع طرفاً ، وأكثر حلماً ، وأنطق لساناً ، وأحسن بياناً ، وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة وأنت رجل تشدو من العلم ، وتنفق من الاختيار ، وتموه نفسك وتعز من قدرك ، وتتهيأ بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتحبب بحسن اللقاء ، وليس عندك الا ذلك .

فلم تزاحم تزاحُم البحار بالجداول ؟ والأجسام بالأعراض ؟ وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ »[32] .

---

(30) المصدر السابق ص 120,110 .

(31) نفس المصدر ص130

(32) نفس المصدر ص119, 118 .

وحين يعرضها من ناحية النسب والأنصار « والله لئن رميتني ببجلة ، لأرمينك بكنانة ، ولئن نهضت بصالح بن علي ، لأنهضن بأحمد بن خلف ، وبإسماعيل بن علي ، ولئن صلت عليّ بسليمان بن وهب لأدفعنك بالحسن بن وهب ، ولئن تهت على بمنادمة جعفر الخياط ، لأتيهن عليك بخسة وهب الدلال ، وأنا أرى أن تقبل العافية وترغب الى الله تعالى في طول السلامة »[33] .

وبذلك يتضاءل ابن عبد الوهاب أمام الجاحظ العملاق ويكاد يذوب ضعة وانحطاطا .

6 ـ قلب حقيقته :

وقد يقلب حقيقته ، ويغير معالمه ، ويبرزه في صورة كاريكاتورية هازلة ، قصداً إلى السخر ، ورغبة في الإضحاك ، ومن الجوانب الهزلية ، والأصباغ الكيمياوية التي يضيفها إلى الصورة ، فيكون التفاعل القوي والمرح الظاهر والخفي .

أ ـ جمعه المتناقضات

فمن الومضات الفنية ، لصورة ابن عبد الوهاب الهزلية ، أن جعله الجاحظ مُتحفاً للتناقضات ، وذلك يؤدي بالصورة الى التضارب والتشويه ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، بل إنه يبعد بها عن المعقول والممكن ، ويخلق الشخصية الغامضة المعقدة ، بل الشخصية الوهمية الخرافية الممسوخة ، التي تجلب دهشنا ، لبراعة تأتيه ، وجوده

(33) المصدر السابق ص118 .

مسخه ، وسخرنا لما صارت عليه من خروج عن الإلف ، ونفور من العقل ، كما نسخر من غريب الهيئة والأبله ، يقول مخاطباً ابن عبد الوهاب : « فأنت المديد وأنت البسيط، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول »(34) .

« وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان . جواز الكون والفساد عليك ، وتعاون النقصان والزيادة إياك ، جوهرك فلكي ، وتركيبك أرضي ، فيا طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة للتضاد ، وسبب للتنافي ، وما ظنك بخلف لا تضره إلا حالة ، ولا يفسده التناقض »(35) .

ب ـ جد قصد به الهزل :

فقد يتحدث حديثاً جاداً ومراده الهزل ، ويبدي محاسن ابن عبد الوهاب ويطري محامده ، والقصد همزه ولمزه ، وتشويهه وغمزه ، كمن ينحت تمثالاً من الحجر ، ثم يطليه بالذهب ، في صنعة جيدة ، وتمويه متقن ، ولكنه يترك جزءاً صغيراً من جسمه دون طلاء ، فينفخ به أمره ، ويهتك ستره ، ويدل به الناس على روائه الزائف ، وبهرجه الكاذب وقد تعمد الجاحظ في هذه اللوحة الواسعة التي لونها بأصباغه ، أن يترك في بعض زواياها ، نكتاً سوداء من نفسية ابن عبد الوهاب ، وعقليته وشوهة جسمه ، دون طلاء لتعرفنا أمره ، وتوقفنا

(34) المصدر السابق ص89 .

(35) نفس المصدر ص99 .

على حقيقته ، وتدلنا على عيوبه . فيكون كمصاب بالبرص ، ينتشر في جلده البياض ، تتخلله قطع من جلده في لونها الأصلي ، لم يصبها البرص ، فتدل على عيوبه ، وتبرز شينه ، وذلك اللون الأبيض حسن في مرأى العين ، لكنه لما كان مرضاً ، بدا للعقل أسود منكراً ، فصورته التجميل ، وحقيقته التقبيح كالذهب المموه على التمثال ، وكالصفات الجدية التي طلى بها ابن عبد الوهاب فلم تمنع الهزل عن الظهور تحتها ، وكشف أمرها ، وبيان الفرص من التصوير على هذا النحو الذي يقول فيه : « وقد كنت ـ أطال الله بقاءك ـ في الطول زاهداً ، وعن التصور راغباً ، وكنت أمدح المربوع ، وأحمد الاعتدال ، ولا والله أن يقوم خير الاعتدال بشر قصر العمر ، ولا جمال المربوع بما يفوت من منفقة العلم . فأما اليوم : فيا ليتني كنت أقصر منك وأضوى وأقل منك وأوهى ، وليس دعائي لك بطول البقاء ، وطلباً للزيادة ، ولكن على جهة التعبد والاستكانة ، فإذا سمعتني أقول : أطال الله بقاءك ، فهذا المعنى أريد ، وإذا رأيتني أقول : لا أخلى الله مكانك فإلى هذا المعنى أذهب »(36) .

« ومما يثبت أيضاً أن ظاهر عرضك مانح من إرادة حقيقة طولك ، قول أبي دؤاد الأيادي في إبله :

سنحت واستحسن أكرعها لا التي في ولا السنام سنام

(36) المرجع السابق ص99 .

وقول رافع بن هرم :

أدق شواهـا عنـد بهـرة جوفها   سنـام كقصر الهاجـري مقرمد

ولم يكن من العيب الا أنك أول من تعبده الله بالصبر على خطأ الحس . وبالشكر على صواب الذهـن ، لقـد كنـت في طولك آية السابلين ، وفي عرضك مناراً للمضلين »[37] .

« ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ، ومن القناعة والإخلاص إلا أنك ترى أن ما عند الله خير لك مما عند الناس ، وأن الطول الخفي أحب اليك من الطول الظاهر ، كان ذلك ما يشهد لك بالانصاف ، ويحكم لك بالتوفيق »[38] .

جـ ـ التلاعب بعقله :

ويقف الجاحظ من عقل ابن عبد الوهاب وتفكيره موقف لاعب الكرة من كرته ، يقذفها الى أعلى ثم يتركها تهبط ، يعنف في ضربها بقدمه ثم يلين ، ينفخها حتى يكبر حجمها ، ويستدير جرمهـا ، ثم يطويها بإفراغ الهواء منهـا ، أو يتلاعب به ، لعـب الصبـي بدميتـه الغريبة الهيئة ، ربطها بخيط من المطاط ، يرمي بها إلى أسفل ، وإلى اليمين أو اليسار ، أو يقلبها ويرقصهـا ، وهـو آمـن وصولهـا إليه ، وارتدادها له ، وامتلاكه إياها ، ما دام الخيط في يده ، وهي لا تملك لنفسها حولاً ولا حيلة ، أو يفعل به ما يفعل بالصور المتحركة في دار

(37) نفس المرجع ص89, 90 .

(38) نفس المصدر ص89 ، 90

الخيالة ، أو بالعرائس الخشبية في المسرح الضاحك .

وإذا كان التلاعب بهذه الجوا مد باعثاً على انشراح النفس وبهجتها ، دالاً على حذق اللاعب ومهارته ، فإن اللعب بعقل ابن عبد الوهاب الأدمي يضيف الى الانشراح والبهجة والحذق والمهارة ، والهزء والاستخفاف ، والهزل والسخر ، وحرية الحركة ، وعمقها في المسخ والتشويه حيث طمس آدميته رغم وجودها ، وأبطل نبضات عقله وألغاه ، وهو يحمله في رأسه ، وذلك محط الهزل ، ومدار السخر ، يقول الجاحظ : « وما ادراك الشخص البعيد ، وقراءتك الكتاب الدقيق ، ونقش الخاتم قبل الطبع ، وفهم المشكل قبل التأمل ، مع وهن الكبر ، وتقادم الميلاد ، ومع تخون الأيام ، وتنقص الأعوام ، فمن توتاء الهند ، وترك الجماع ، ومن الحمية الشديدة ، وطول استقبال الخضرة . فأنت يا عم حين تصلح ما أفسد الدهر ، وتسترجع ما اخذت منك الأيام لكما قال الشاعر :

عجوز ترجى أن تكون فتية
وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار ميرة أهلها
وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر »[39] ؟

« والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون استفاضة عرضك ، قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب

---

(39) المصدر السابق ص94

منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك . وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت على ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ، ولعمري إن العيون لتخطىء ، وأن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذا كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس[40] » .

7 ـ إفحامه بالأسئلة :

ويوجه اليه الأسئلة الكثيرة . وقد بلغت مائة مسألة ، يعرف قصوره عن إجابتها، ليبين فسولته ، وضحالة حصيلته ، ونضوب قريحته ، ثم يحيله إلى كتبه العديدة ، يتلمس الإجابة منها ، ويتعلم بين دفتيها ، ليظهر لها الأستاذية والحذق والعبقرية . ولا يهم الجاحظ جوابه ، ولا يعنيه رجوعه الى كتبه ، وليس غرضه ازاحة غياهب جهله ، وإنما وكده الزراية بعقله وعلمه ، ووضعه في إطار قاتم من البلادة والبلاهة ، وجعله كاريكاتورياً مشوهاً ، لمن يدعي العلم ولا علم لديه ، ولمن يفاخر بذكائه وعقله ، وهو بليد غبي ، ولمن يطاول أستاذه ويخاشنه وهو أحط من أن يكون تلميذه ، ولقد أوضح الجاحظ الطريقة التي بها يذله ، ويمسخه في رسالته ، وهي الأسئلة التي يلقيها إليه ويطلب جوابها منه ، ثم التشهير به، يجعل كل من يلقاه يسأله إياها ، ويحرجه بها ، وذكر السبب الذي من أجله سأله وأحرجه ،

---

(40) المصدر نفسه ص89.

وكشف للناس وله حبال جهله ، ورسم الصورة المشوهة لعقله . أنه سبب شريف ، وغرض نبيل ، هو كشفه أمام نفسه ، ليكشف من غربه ، ويعدل من سلوكه وقوله ، وقد ذكر ذلك في رسالته بقوله : « فلما طال حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ، ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدي صفحته للحاضر والبادي وسكان كل ثغر ، وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة ، وأهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ، ليكفوا عنا من غربة ، وليردوه الى ما هو أولى به (41) » .

ومن الأسئلة التي وجهها إليه « خبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرغ في أنائه ؟ أكان بحراً أجاجاً استحال عذباً زلالاً ؟ أم كان زلالاً عذباً استحال أجاجاً بحراً ؟ خبرني كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون إلا في باطن الأرض ، وهو أشبه بالهواء ، كما أن الهواء أشبه بالنار (42) » . « وخبرني عن الزرافة . أمن ولد الناقة أم من الضبع ؟ ومن الشبوط أم من ولد البنى أم الزجر ؟ وخبرني ما عنقاء معزب . وما أبوها . وما أمها ؟ . وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ؟ ولم جَعلوها عقيما ، وجعلوها أنثى (43) » .

« وخبرني . من خانق الغريض ، وقاتل سعد يوم النفق ؟ ومن

(41) مجموعة رسائل الجاحظ ص86

(42) نفس المرجع ص98

(43) المصدر السابق ص99 .

الذي استعدى عمرو بن عدي ؟ ومن صاحب عمارة بن الوليد ؟ ومن يصرع منهم الأصحاء ؟ ومن يبرىء المريض ، ويستهوي العقلاء ؟ ومن فصل ما بين الشيطان والجنى ؟ وما بين الجن والجن ؟ ومن طعامه الجذف (44) » .

وهكذا كانت الرسالة ميداناً فسيحاً للسخرية ، ومجالاً رحباً للاستهزاء والايجاع ، تناول فيها الجاحظ شخصية ابن عبد الوهاب فمسخها ، وتلاعب بها ، وصوره قذما ضئيلاً ، ثم ألبسه رداء فضفاضاً من أردية الكمال والجلال ، فتعثر في ثيابه ، وتردى حتى أصبح سخرية الساخرين ، وأضحوكة الضاحكين ، ثم خلع عنه هذه الثياب ، وأظهر عوراته وعيوبه أمام الناس ، وعلى ملأ منهم ، واضحة مرئية ، محسوسة مجسمة ، وبالغ في هذا التجسيم ، مبالغة ساخرة ، فأظهره في صورة كاريكاتورية تدعو إلى الهزء ، وتستحث الساخرين ، على الأسماع بالسخرية .

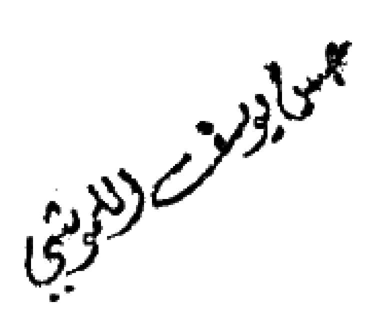
فالجاحظ يتلاعب به ، يرفعه ويخفضه ، ويقدمه ، ويؤخره ، ويدنيه ويقصيه ، ويدلله ثم يزجره ، ثم يتركه هزأة الهازئين ، وأمثولة الساخرين .

وما مثله معه الا كقط وقع في حبائله فأره ، فهو يتلاعب به ويتقاذفه ، ثم يظهر الغفلة عنه ويتناساه ، حتى إذا أمن الفأرة ، وتأهب للفرار ، وشرع فيه عاجله ذلك الصياد الماهر ، فشد حبائله

---

(44) المصدر نفسه ص104 .

نحوه ، فلا يروغ عنه ، ثم يظهر له الصداقة ، ويمنحه الإخاء ، وطيب الصحبة ، فيغره نفسه ، ويفرغ روعه ، ثم يكر عليه بالهجوم ، ويلاحقه بالطعنات ، وذلك أشد ألوان الإيلام ، وأعنف أنواع التعذيب .



▣ ▣ ▣

وبعد

تلكم رسالة التربيع والتدوير التي عمقت الكاريكاتور ، وارتقت بفن السخر ، وأطلعتنا على جوانب عديدة له ، وفنونا مختلفة الألوان شهية الطعوم من اللذع والقرص والهجاء الذي رقت به المدنية ، ولطفته الحضارة فسلكت به طريق التصوير المضحك ، والسخر المر ، المعتمد على المقابلات ، وعرض المتناقضات حين تناول الجاحظ صاحبه ، وأخذ يقلبه بين يديه .

« ويعبث به قبل أن يقتله ، فإذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وغرور وحسد ، وجهل مع حسن القامة ، وعظم الهامة وحور العين ، وطيب الأحدوثة ، ثم يلح فيما يتناوله ، ويبالغ في سرد الفكه ، ويدس السم في الدسم ، حتى تركه صورة وقصة تضحك القارئين ، وتعجب المتأدبين على مر العصور [1] » .

وقد عدد الجاحظ نفسه أغراض كتابته في التربيع والتدوير وبين فوائده، وأعجب به ، وارتضاه ،معَ ما فيه من الأخلاط من أشكال وأضداد ، ومن الجدل والهزل ، ومن الحطة والإطلاق ومن الاستئناف

(1) الأسلوب : أحمد الشايب ص114 طبعة3 سنة1939 م النهضة

والقطع ، ومن التحفظ والتغنج ، ومن التثبت والتهاون ، إذا أريد تقريع معجب ، أو تكشيف مموه ، أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو قمع معار ، أو ممازحة ظريف ، أو مساءلة عالم أو مدارسة حافظ ، أو تنبيهاً على الطريق ، أو تجديداً للذهن[2] » .

ورأى الاستاذ أحمد أمين في الرسالة فوائد للدارس الباحث أكثر مما رآه الجاحظ ذلك أنه « استطاع ان يجعل لها موضوعاً علمياً ، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أي الرسائل العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية كان يشغل الناس في عصر الجاحظ[3] » .

ويقول الدكتور طه حسين مفاخراً بالرسالة مبيناً ابتداع الجاحظ وطول نفسه « ويكفي جداً أن ننظر في رسالة التربيع والتدوير التي يهجو بها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب ، فستجدون هذه الرسالة طويلة تبلغ خمسين ومائة صفحة ، وهي من أولها الى آخرها هجاء وهجاء لم يقصد فيه الجاحظ إلى الجد ، وإنما الهزل ، فحدثوني أي الشاعر العربي الذي يستطيع أن يبلغ في الهجاء بعض ما بلغه الجاحظ في رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتفنن ما بلغه الجاحظ . ونحن نستطيع أن نقرأ هجاء جرير ، وهجاء الفرزدق ، وهجاء الأخطل ، فلن نجد فيها شيئاً يصح أن يقاس بهذا اللون كالذي نجده في كتاب الجاحظ[4] » .

---

(2) مجموعة رسائل الجاحظ ص132 .

(3) ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين حـ3 ص128 ,129 ط السعادة مكتبة النهضة .

(4) من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص56 دار المعارف بمصر سنة1965 م .

وأستاذنا الدكتور عبد المحسن عاطف سلام كان يرى في محاضراته أنها من أروع انواع السخر الهازل في تاريخ الأدب العربي .

فالرسالة صورة واضحة لأدب الجاحظ وعلومه وعقليته وفلسفته واتجاهه في الحياة .

والدارس يستطيع من خلالها أن يقف على نفسية الجاحظ وخصاله وخلقه ومعارفه وبراعة منطقه ، وطواعية قلمه لخلجات فكره . وأنها الرسالة الأولى من نوعها التي تناولت السخر في تفنن وابتداع ، وبسط ، وإيجاع ، يجذب الأنظار ، ويلفت جيد الزمان .

وأن السلاح السحري فيها ، والأداة الأدبية التي لم يسبقه اليها كانت التصوير الهزلي الواسع الإطار ، والمتعرج الخطوط الزاهي الألوان .

وقد جمع فأوعى ، وقدح فأورى ، وأصاب فأحمى .



الخاتمة

تعترض المرء كل يوم الكثير من المواقف ، والعديد من المشكلات ، وهو يواجه كل موقف بشجاعة ، أو يهرب منه بلباقة ، ويحل كل مشكلة بشيء من الجد ، قد يكثر ، وقد يقل ، تبعاً لأهمية المشكلة ، وقد يكون الحل ببعض الهزل ، وبقليل من السخر ، وبابتسامة مرحة تحمل التفاؤل والرضا ، وتخفف المشكلة أو تمحوها .

ومواجهة المواقف باليأس والقنوط من صفات المتبرم بالحياة ، الراغب عنها ، والوقوف أمامها بالصرامة والعنف من عادات الخشن الفظ الذي لا يأبه بالناس ، ولا يكترث بدوام صحبتهم ، والانسحاب من الموقف في ذل ، وانكسار ،من سمات الخائر الرعديد الذي يخاف المواجهة ويفرق من المجابهة .

وحل المشكلات بالضرب والقتل - إن اعتبرنا ذلك حلا - دليل الاعتماد على القوة العضلية ، والقدرة الجسدية وذلك شأن من لم ينل حظاً من التعليم ، وقسطاً من العقل والتدبير ، فيندفع جسمه سابقاً ومضة فكره .

وفضها بالشتم والسباب من خصائص ذي اللسان البذيء والخلق الدنيء .

ومعالجتها بالضحك والابتسام ، والسخرية والتعريض طبيعة المتعلم المتأدب ، الناضج الفكر ، الواسع الحيلة ، الذي يدرك باللين والضحك والابتسام ، والسخرية والتعريض أكثر مما يناله غيره بالعنف والقسوة ، فيزيل مشكلاته ، ويقتل خصمه ، وهو مطمئن النفس ، مستريح البال ، يضحك ملء شدقيه ، ويمرح حشو إهابه ، ويتفرج بقتيله ، المتخبط في دمه ، ويسلي روحه بمنظره ، وقد أمن ان يؤخذ بجريرته ، أو يحاسب على قتلته .

كان الجاحظ من هذا الطراز الأخير الذي يجابه المواقفبالسخر ، ويعالج المشكلات بالضحك ، ويواجه الخصوم بالهزء والاستخفاف ، لم يكن متبرماً بالحياة ، ساخطاً عليها ، بل كان مرحاً متفائلاً ، يحب الحياة بكل ما فيها وإن صالحت على جسمه الأضداد ، ولم يكن خشناً فظاً ، وإنما كان ليناً سهلاً ، ولم يكن خائراً جباناً ، بل كان جريئاً مقداماً ، ينقد ما لا يروقه ، ويتناول بلسانه الحاد ، من حاد ، ولوكان أستاذه .

ولم يحل مشكلاته ، ويواجه حياته بالضرب والقتل والقوة الجسمية لأن تلك عدة من لا تفكير لديه ، وحيلة من لا حيلة له ، ولم يلجأ الى السب والشتم والهجاء . بل اتخذ الطريق اللين في التقريع والتأنيب ، طريق الاستهزاء والسخر . وأحب من اتخذوه لهم طريقاً ، وروى سخرياته وسخرياتهم في مواجهة المواقف التي اعترضتهم . كما روى كلمات لهم في مواقف طبعتها بالسخر والتهكم .

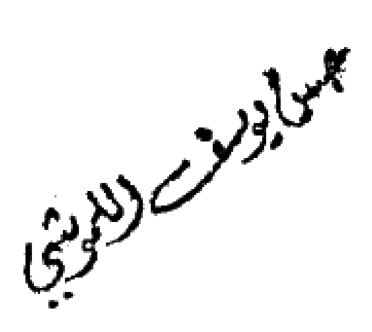
وتفنن في الأجوبة المسكتة ، والتخلص الفج ، وحسن التعليل ، وظهور ما في العقل الباطن ، دليلاً على حدة ذكائه ، وحبه للمرح ،

وتخلصاً من مواقف الحرج .

وهكذا كان الجاحظ يستخرج من مكنونات عقله وومضات فكره ، النكتة المسلية ، والفكاهة المرحة والسخر اللاذع ، والجواب القاطع ، ليدفع عن نفوسنا عبء الحياة الثقيلة ، ويجعلنا نحيا حياة طيبة هانئة تفيض علينا بالخير ، وتنظم سلوكنا في دنيانا فلا نضع أنفسنا في مواطن المهانة والازدراء ، والذراية والاحتقار ، فنكون محلاً للضحك ، وألعوبة في يد الساخرين .

ولَعَلَّ ما قدمناه لسخره من أمثلة دليل على تفوقه ونبوغه في هذا الفن .





المراجع

مسلسل	المرجع	مؤلفه
1	معجم الأدباء	لياقوت الحموي
2	تاريخ بغداد	للبغدادي
3	المستطرف في كل فن مستظرف	للأبشهي
4	ثمرات الأوراق	ابن حجة الحموي
5	البيان والتبيين	للجاحظ
6	أمراء البيان	محمد كرد علي
7	أدب العرب	مارون عبود
8	المنية والأمل	للمرتضى
9	الجاحظ حياته وآثاره	طه الحاجري
10	الفن ومذاهبه في النثر العربي	د . شوقي ضيف
11	فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ	محمد المبارك
12	الحيوان	الجاحظ
13	الإعلام	الزركلي
14	البداية والنهاية	لأبي الفداء
15	الكامل	ابن الأثير
16	الجاحظ	جورج غريب
17	في علم النفس	محمد الأبراشي
18	أخبار الحمقى والمغفلين	ابن الجوزي
19	قصة الفلسفة اليونانية	أحمد أمين

مسلسل	المرجع	مؤلفه
20	الجاحظ	محمد الابراشي
21	ساعات من الكتب	العقاد
22	المختار	عبد العزيز البشرى
23	عبد العزيز البشرى	جمال الدين الرمادي
24	بلاغة الكتاب	محمد أمين حجاب
25	مجموعة رسائل الجاحظ	الجاحظ
26	ضحى الاسلام	أحمد أمين
27	الجاحظ	أحمد الحوفي
28	مروج الذهب	المسعودي
29	البخلاء	الجاحظ
30	الضحك	هنري برجسون ـ ترجمة الدرومي وعبد الله عبد الدايم
31	عيون الأخبار	ابن قتيبة
32	ثمار القلوب في المضاف والمنسوب	الثعالبي
33	الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني
34	ثلاثة رسائل للجاحظ	يوشع فنكل
35	وفيات الأعيان	ابن خلكان
36	الأسلوب	أحمد الشايب
37	من حديث الشعر والنثر	د . طه حسين
38	المنتخب من أدب العرب	د . طه حسين وآخرون .

الفهرس



منشورات

المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع

٥٠٠ درهم